الباب السادس

في مصر

"من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع"

"**حديث شريف**"

obeikandl.com

الفصل الأول

مصر العربية

تفردت مصر وتاريخها بظاهرتين في الزمان والمكان – هما: القدم، والاستمرار، أو السبق، والاستقرار. تلتقي فيها القارات القديمة وتفترق. وتتواصل فيها البحار المعروفة في الشمال والجنوب. من الهندي إلى الأطلسي، عن طريق بحريها الأبيض والأحمر. وكأن مناخها وماءها وثراها هبات من السماء، منحتها بسخاء، لتولد فرق أرضها أول حضارة إنسانية. ظهرت فيها الزراعة في نهاية الألف السادسة قبل ميلاد المسيح، واستمرت حتى اليوم في الذروة. والزراعة أخطر الاختراعات البشرية أثرا في تاريخ الإنسان. ومع أن مصر غيرت دينها ولغتها، فإنها لم تغير زراعتها ولم يتغير الفلاح فيها.. وما يزال ريفها يحمل سماته الأولى.

هذان القدم والاستمرار، تدين بهما مصر للنهر العظيم الذي يتهادى في قلبها، نحو البحر الأبيض الذي يتوسط العالم. فأصبحت نقطة تلاق وانطلاق للرسالات العالمية. ونهضت (مصر. القاهرة) في الإسلام، بما نهضت به الإسكندرية قبل الإسلام، مع فارق بين اتجاه الثقافة الوثنية إلى الشمال، وبين اتجاه الثقافة الإسلامية في مهاب الرياح الأربع، مع اختصاص الوطن العربي والإسلامي بالمقام الأول.

كان لها من آلاف السنين نظمها الإدارية والفنية والقضائية ووزير يشرف على القضاء. تقدم الشكاوى مكتوبة إلى المحاكم حيث المواعيد والسجلات والوثائق ويشترط تصديق الملك أحيانا على الأحكام. وفي كل إقليم محكمة تتبع المحكمة العليا في العاصمة. وكانت لها فنونها التطبيقية والهندسية والتعدينية والزخرفية، وموازينها ومكاييلها ومقاييسها، ونظامها التعليمي،

وعلومها الرياضية وفلسفتها، وآدابها، وتماثيلها ومعابدها، وصناعات الورق والمنسوجات والخزف والنحت والتصوير. وما تزال قراطيس البردي ودور الآثار في العالم تنطق بمكانة الطب المصري من أقدم العهود، وتفره بأسرار التحنيط الذي لم يصل إليه العلم بعد. وكان بالإسكندرية عندما فتحها العرب أربعة آلاف حمام عام للشعب، مزودة بالتدفئة الصناعية!!.. يحسدها عليها إلى اليوم كل عواصم أوربة وأمريكا.

بنت الأهرام أضخم الآثار الإنسان حتى اليوم. وأقامت السود وبنت المعابد والصروح الممردة. وبنت العواصم وجيشت الجيوش وأقامت الإمبراطوريات العالمية قبل الميلاد بخمسة عشر قرنا. فكان تحتمس الثالث أول قائد عظيم عرفه التاريخ. أقام أول إمبراطورية من أعالي الفرات من آسيا، إلى الشلال الرابع في وسط أفريقيا. ومن أربعة عشر قرنا قبل الميلاد، وألقى سنة قبل الإسلام، عرفت التوحيد بعبادة إله واحد. واعتقدت في النشور والحساب في الحياة الآخرة.

كان بها من ثلاثة آلاف عام حكام في اثنتين وعشرين مقاطعة في مصر العليا، وأقل من ذلك في مصر السفلى لهم بعض الاستقلال عن الحكومة المركزية، ككل حكومة عصرية. والأرض للحكومة أو حكام المقاطعات، يزرعها الفلاحون. وخراجها خمس المحصول.

ولها الجواري المنشآت في البحر كالأعلام، مواخر بتجاراتها في البحار الأربعة: الأحمر والأبيض والهندي وبحر إيجه.. أما البحر الخامس – النيل – فيجمعها بالصومال والسودان ويبلغها البحر الذي يربطها بالشرق الأقصى، والبحر الذي يربطها بالشام وكريت واليونان وروما ولبنان وفينيقا.

وكان المصريون أول شعب استعمل الكتابة قبل ميلاد المسيح بثلاثة آلاف عام. وما تزال كتاباتهم كالوشي المنمنم والرسم المنمق، تحلى آثارهم حتى هذه الساعة، ناطقة بمظاهر حياتهم الفكرية والعسكرية.

obeikandl.com

مدرسة الإسكندرية:

فتح الإسكندر مصر وتركها بين أتباعه فاستقلت بهم عن الإغريق، كما ستستقل بعد بحكامها العرب، وصار لها بالإسكندرية جامعة ودار كتب كالجامعة. ولما فتحها الرومان بطشوا جبارين بالمصريين، فحقت عليهم الهزيمة النبي أنزلها بهم المسلمون، عند الفتح.

ظلت الإسكندرية عاصمة للبلاد منذ أسسها الإسكندر سنة ٣٣٢ ق.م. حتى دخلتها جيوش العرب بعد نحو ألف عام. كانت العواصم تظهر في العالم، مثل أثينا وروما، لكن الإسكندرية بقيت دائما مدينة الحضارة، بمدرستها ومتحفها، ومكتبتها، ومرصدها. وكانت كعبة العلماء الرياضيين والفلكيين في العالم. وفي القرون الخمسة، من الثالث قبل الميلاد إلى الثاني بعد الميلاد، كان جميع علماء الفلك والرياضيين العالميين من علماء مدرسة الإسكندرية أو من تلاميذها.

كانوا يعتقدون في دوران الأرض قبل أن يكتشف ببضعة عشر قرنا، وقاسوا قطرها قياسا علميا صحيحا. ومنهم بطليموس صاحب "المجسطي" الذي ظل إنجيل العلوم خمسة عشر قرنا، أثبت فيه كروية الأرض، وكروية الكون، وأن الأرض في وسطه ليست إلا هباءة. وما تزال الدقة البالغة في المنشآت الهندسية المصرية كالمعجزات. وقد استنبط منها علماء الرياضة الأولون قواعد الهندسة. وكان أفلاطون يدعو قومه ليتعلموا ما يتعلمه الناشئ المصري من فروع المعروفة – كما كان كثير من علماء الإغريق يفاخرون بأنهم درسوا بمصر!!

ورصد المصريون النجوم، واستعملوا التقويم الشمسي بعد محاولة استعمال التقويم القمري، وقسموا السنة إلى اثني عشر شهرا، وكان الأساس العادي عندهم رقم ١٠ وعبروا بزهرة

اللوتس عن (١٠٠٠) وبجزء من سلسلة مقياس النيل عن (١٠٠). وكانت المزولة واحدا من اختراعاتهم الفلكية.

وفي سنة ١٦٥٠ قبل الميلاد كتب المصريون أقدم سجل رياضي في التاريخ، يسمى مخطوط أحس في العدد وكتابة الأرقام والكسور والمربع والجذر التربيعي والمعادلات والمتواليات. ولم تولد الثقافة اليونانية إلا بعد ذلك الكتاب بنحو ألف عام. فاستفادت بكل ما قدمته العقول المصرية ومارسته في عشرة قرون. نقل (تاليس) المعارف الهندسية والفلكية عن المصريين عاش فيهم زمانا يتعلم هندستهم. كما قضى بينهم أفلاطون ثلاثة عشر عاما يتعلم. ونقل (فيثاغورس) علمي الحساب والهندسة وعاش فيهم اثني عشر عاما يتعلم، أما (إقليدس) فمصري من الإسكندرية، وإن كان يوناني الأصول، سجل في كتابه "المبادئ" ما هو حاصل بالفعل من الفن الهندسي بمصر، وهو أعظم مرجع هندسي قديم.. أما أرشميدس فتلميذ إسكندري لإقليدس. اخترع الطنبور المصري، ليسقي الزرع ويرفع المياه من المناجم.

وكانت عبادة إيزيس هي عبادة جنوب أوربة عند ظهور المسيحية.

***

دخلت المسيحية مصر في منتصف القرن الأول للميلاد، فرفعها الشعب شعارا في وجه الرومان الوثنيين. وأصبح في كل دير مكتبة، وفي كل كنيسة مكتبة، وفي الإسكندرية وحدها سبعمائة ألف مجلد على الأقل. واستعذب المصريون العذاب في سبيل الدين، فذاقوه مستبسلين على أيدي البراطرة الوثنيين والمسيحيين، من تراجان إلى فاليريان إلى دقلديانوس، الذي خلدت الكنيسة القبطية آثامه فجعلت التقويم القبطي يبدأ ببداية حكمه. واستشهد نحو ١٤٤ ألفا كانوا يترنمون بالأناشيد في طريقهم إلى ساح الاستشهاد، وسمي التقويم القبطي ذاته تقويم الشهداء.

وفي سنة ٣١٩ انقض المسيحيون على السرابيوم حيث جامعة الإسكندرية ومكتبتها فحطموها مذ كانت في نظرهم، كآثار الفراعنة، رمزا للوثنية.

ومثلت (كنيسة الإسكندرية) المذهب المصري بين مذاهب روما والقسطنطينية وأورشليم فكانت أولى الكنائس في التعليم والذود عن الذين. وفي مجمع نيقية المسكونة (٣٢٥م) كان البطريرك ألكسندروس وشماسه إثناسيوس المصريان أروع حضاره. ولما صار إثناسيوس بطريركا نفي خمس مرات في عهود أربعة من البراطرة. وانقسم أبناء المسيحية فصارت الكنيسة المصرية (أرثوذكسية) وصارت الرومانية (كاثوليكية). ولما انعقد مجمد خليقدونية سنة ٤٥٠ بآسيا الصغرى وقرر (عقيدة الطبيعتين) أعلن بطريرك الإسكندرية حرم أعضاء مجمع خليقدونية، فنفاه الإمبراطور واستخدم القوة لإرغام المصريين على قبول عقيدة (الطبيعتين) فرفضوا. وفي سنة ٤٥٩ انشطرت كنيسة روما، والكنيسة المصرية. وظلتا كذلك حتى اليوم.

***

ازدهرت علوم الطب في القرنين السادس والسابع. وكان الأطباء مثل سرجيوس يتقنون العلوم والآداب السريانية. وفي القرن السابع ترجم الأسقف بولس الكتاب المقدس إلى السريانية. ووضع أهرون مقالاته الطبية بالسريانية ليترجمها ماسرجويه بأمر عمر بن عبد العزيز إلى العربية فيما بعد. وفي سنة ٦٨٠ رحل يعقوب الرهاوي إلى مدرسة اللاهوت بالإسكندرية. وفي العهد ذاته ألف بولس الإيجيني كتب الطب في الإسكندرية، وأرخ "يوحنا النيقوسي" للفتح العربي. وبدأ النقل إلى اللغة العربية بتكليف خالد بن يزيد بن معاوية للمتفصحين بالعربية بمصر، ومنهم (اصطفن) الإسكندراني. واعتمد عمر بن عبد العزيز علي (ابن أبجر) طبيب الإسكندرية، وبعد سبعين عاما، رحل (بليطان) بطريق الإسكندرية إلى بغداد يطيب جارية للرشيد.

كانت القوة الرومانية في البلاد – عندما دخلها الإسلام – مركزة بين ساحل النيل عند مصر القديمة الآن وبين عين الحالية (آون) وقد أنشأها الفراعنة من أربعة آلاف عام، وهي منطقة عرفها العرب باسم مصر فوسعوا مفهوم الاسم فيما بعد، فصار يشمل مصر كلها. فتسمية "مصر" تسمية عربية سابقة على الإسلام [٥١].

وكانت قرى هذه المنطقة الصغيرة وأديرتها وحصونها بقايا مدن قديمة أنشئت في طول تاريخ مصر القديم، على الضفة الشرقية للنيل في مقابل العاصمة (منف)، وفي موقع مثالي للسيطرة على الوجهين القبلي والبحري. وكان حصن بابليون قائما في مواجهة جزيرة الروضة قريبا من العاصمة. ولما انتصر عمرو على الروم في (أم دنين) نقل معسكره من مكان المعركة إلى شمال الحصن وشرقيه بين البساتين والكنائس – وانضوى أهل مصر إلى العرب فكانوا عونا لهم على الروم... مذ كان الخلاف بين المصريين والرومان في عنفوانه والبطريرك "بنيامين" مختف من ثلاثة عشر عاما عن الرومان – فأعطاه المسلمون الأمان، فظهر، وصرح له بفتح الكنائس.

مصر العربية:

بلغ جيش عمرو بن العاص "العريش" في ١٠ من ذي الحجة سنة ١٨ (١٢ من ديسمبر سنة ٦٣٩) ودانت له مصر. ثم طار على جناحي نسر إلى أنطابلس (برقة) ففتحها بصلح في آخر سنة ٢١. ثم طار إلى أطرابلس ففتحها عنوة في العالم التالي.

---

(٥١) قرب محطة سكة الحديد في وسط القاهرة الآن.

وأتبع عمرو الفتح العربي بفتوح في السياسة والحكم. منها إعادة حفر خليج تراجان أو (سيزوستريس) وسماه خليج أمير المؤمنين، ليربط البحر الأحمر بالنيل والبحر الأبيض.

ومنها النزاهة المثلى في جباية الضرائب وتعمير البلاد. وتعالت ألوية الإسلام خفاقة فوق الماء في الشمال والغرب، في "معركة ذات الصواري" البحرية (شمال غربي قبرص)، حيث غلبت الروم، فغدا البحر الأبيض بحيرة عربية لأول مرة في تاريخ الإسلام وأوربة (٣٤هـ – ٦٥٥م).

ولم تصبح مصر بالإسلام ولاية، غلبها على أمرها غزاة.. وإنما أصبحت أصلا أصيلا من الدولة الإسلامية. فذلك جلال الإسلام. إن لم يكن أصحاب الدين الجديد، كالرومان أو خلفائهم في أوربة وأمريكا، عنصرا يمارس السيادة في البلاد المفتوحة. فالناس فيه سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالورع والتقوى.

وفي عهد الدولة الأموية فتح الموالي أعظم الفتوح.. حتى إذا جاءت الدولة العباسية اختفت فكرة الأصول تماما. وكان قد مضى نحو قرن صار فيه الحجاز أقل بلاد الدولة الإسلامية حظا من الرياسة والقيادة الفعلية.

ويوم سيطرت العمارة البحرية الإسلامية على البحر الأبيض في ذات الصواري، كان بينها سفائن كل بحارتها من القبط. ينضحون عن رايات مصر الإسلامية.

وأقبل العرب على المصريين مستبشرين. فقد خصت مصر بالذكر في القرآن مرارا. وكان أهلها محل تكريم من الرسول. وهو يقول: "استوصوا بالقبط خيرا فإن لهم ذمة ورحما".. والمراد بالرحم أنهم أخوال إسماعيل بن إبراهيم الخليل. أمه هاجر القبطية. وهو والد عرب الحجاز ومنهم

النبي.. وأنهم أخوال إبراهيم بن محمد رسول الله. أمه مارية القبطية من حفن كورة أنصنا [٥٢] فأعظم به من نسب، بين المصريين والعرب.

روى عبد الله بن عبد الحكم أنه كان بمصر عندما دخلها العرب ثمانية ملايين شخص يدفعون الجزية. فإذا أحصى الشيوخ والنساء والأطفال – فهم لا يدفعون – فربما تضاعف العدد. وكانوا بعد الفتح بنصف قرن يسكنون عشرة آلاف قرية، ليس في أصغرها أقل من خمسمائة من الرجال الذين تفرض عليهم الجزية.

وبلغت الضرائب ١٠ – ١٥ مليون دينار.. والدينار نحو نصف جنيه يتفق أكثرها في تعمير البلاد.. حتى كان ما تبقى للدولة في بداية القرن الثالث الهجري ١٠٠ ألف دينار فحسب.

وصار للمصريين دور في الفتنة في عهد عثمان، وكانوا بعد أنصارا لعلي. ثم ضلعوا مع عبد الله بن الزبير ضد الأمويين. ثم صار هواهم مع العباسيين. وفي مصر كانت آخر معركة لبني أمية. فلفظ آخر خلفائهم أنفاسه سنة ١٣٣ بإقليم الجيزة.

منع الجند بعد الفتح منافسة الناس في أرزاقهم من الزراعة أو التجارة أو الصناعة. أما من عداهم من العرب المهاجرين فكانوا كالبحر الآتي الذي غمر الأرض.

كانت البلاد أيامئذ مقسمة إلى ثمانين كورة أو مقاطعة، يديرها موظفون من أهل البلاد، ونعم الأقباط بحرية عظمى لم ينعموا بمثلها قبل، فبقي (الملكاني) إلى جوار (اليعقوبي) يظللهما

---

(٥٢) مدينة قديمة من نواحي الصعيد قبالة الأشمونين بصعيد مصر في البر الشرقي للنيل. أقيم بها مقياس للنيل من أقدم العصور، جدد في عصر معاوية بن أبي سفيان.

تسامح الإسلام، ولم تحول الدولة كنيسة إلى مسجد، وفي القرن الثاني كان الأمير يشيد الكنائس للأقباط ولا يكتفي بالإذن بإقامتها، ففتحت قلوبهم. ودفعت خلافات المذاهب القبطية بعضهم إلى الإسلام.

ولم ينته القرن الأول حتى أقيمت المنابر للصلاة بالريف وتغلغل فيه الإسلام. وفي خلافة عمر بن عبد العزيز صار عمد البلاد مسلمين. ومن قبل ذلك عربت الدواوين، وتزوج نساء القبط من المسلمين. وتعلم المسلمون الجدد اللغة العربية للصلاة. ثم زاحمت اللغة العربية اللغة القبطية في المعاملات والأسواق فزحمتها. وفي سنة ٢١٦ – ٢١٩ أسقط المعتصم (العرب) من الدواوين وقطع أعطياتهم، فاتحد العرب مع الأقباط في الثورة عليه، وكثر زواج الذميات من العرب في عصر ابن طولون، في منتصف القرن الثالث. واتسع نشاط العرب في الريف فزرعوه وتناسلوا فيه، وازداد إقبال القبط على الإسلام وعلى اللغة العربية حتى رأى رجال الدين أن الشعب القبطي لم يعد يفهم الصلاة باللغة القبطية، فترجموا جزءا منها إلى اللغة العربية، ودخلت العربية في صلاة الكنيسة المصرية، ثم صارت لغة القبط عموما ابتداء من القرن الرابع.

كانت التجارات مع شبه جزيرة العرب بالبر أو بالبحر الأحمر، عن طريق خليج أمير المؤمنين الذي ينبع من النيل شمال الفسطاط، ومع بلدان البحر الأبيض عن طريق خليج آخر يصل خليج أمير المؤمنين وبحيرة المنزلة، فالبحران يلتقيان بما يشبه امتداد قناة السويس الآن. وكانت ثمت تجار يعرفون العربية والفارسية واليونانية والفرنجية يبحرون من بلاد فرنسا ويتجهون إلى الفرما [٥٣]. يحملون سلعهم على ظهور الجمال، ويسافرون إلى القلزم [٥٤]. ثم يبحرون من

---

(٥٣) قرب مدينة العريش الآن.

القلزم إلى الجار (ثغر المدينة) وإلى جدة (ثغر مكة) ويذهبون إلى الهند والصين ليعودوا بغلات الشرق إلى القلزم ثم الفرما، حيث يركبون بحر المغرب (البحر الأبيض المتوسط). فيقصد بعضهم القسطنطينية ليبيع سلعه، ويؤم آخرون مقر ملوك فرنسا.

أما المواصلات الداخلية بسواقي النهر وجداوله فمضرب المثل. وأما الجسور والقناطر والجزائر ففي خدمتها في بعض السنين مائة وخمسة وعشرون ألفا من العمال للتطهير والتعمير. والرحلة في الماء بين الفسطاط الإسكندرية تستغرق أياما ستة، وتستغرق بين الفسطاط وقوص من ثمانية أيام إلى خمسة عشر يوما – وهناك تنقل على متون الإبل إلى البحر الأحمر أما الفسطاط فيربطها بجزيرة الروضة والجيزة جسران متحركان من السفن.

وكان لأوراق البردي مصانع في الفيوم والفسطاط والمنزلة. وكانت المنسوجات في كل مكان تحمل الطرز المصرية، حتى لتسمى "قباطي" نسبة إلى صناعها المهرة وهي تصدر، كمصنوعات الورق، إلى إيطاليا وفرنسا وبغداد وغيرها.

ولما قدم المأمون لقمع الثورة على نائبه "المعتصم" استضافته مارية القبطية، فأهدته عشرة أكياس ذهبا!

كان القضاة ينظرون القضايا أحيانا في المسجد لو كان المترافعون مسلمين، أو علي باب المسجد علي المعارج، لو كان منهم ذميون حتي لا يضطر أحد إلى ما لا يريد.

---

(٥٤) ميناء السويس الآن.

استقبل القبط أصحاب الدين الجديد مطمئنين، لأنه دين توحيد وبعث. ولأن المسلمين مأمورون بتركهم وما يدينون. وأغرم العرب بمصر. وأحسن المقال فيها عمرو، في خطابه المشهور لعمر – واجتاحها سيل القبائل.. أربعة آلاف في جيش عمرو، واثنا عشر ألفا أو نحو ذلك في جيش المدد.. يختطون حول المسجد الجامع في الفسطاط قبيلة قبيلة.. ولم يتوقف السيل ولم يخف.

وانتقلت همدان إلى الجانب الغربي من النيل فكانت بالجيزة. ووفد بنو "هذيل" مع المدد الذي أمد به عمر عمرا، ولما اختط عمرو الفسطاط منحهم موضعا خاصا بهم. وكانت مرابع جند "هذيل" في بنا وبوصير قريبا من سمنود. حيث ترعى دوابهم في الربيع. ونزلوا في عهد معاوية بالصعيد (المنيا وأخميم).. ونشروا الشعر في مصر فكان منهم الشعراء الفحول: أبو العيال الهذلي. وبدر بن عامر. ومليح بن الحكم بن صخر الفردي. وشعرهم في ديوان الهذليين.

وانتشرت قضاعة حول أخميم. وانتشرت جهينة وغيرها في القصير. وأرسلت الفرق إلى الإسكندرية فكانت لحم فيها أعز القبائل. وتكاثرت الأمداد في زمن عثمان ومعاوية عشرة آلاف، وخمسة آلاف. فكان بالإسكندرية وحدها سبعة عشر ألفا، وفي مصر أربعون ألفا في عهد معاوية. وأقبلت الآلاف تترى.. إلى كل مكان، إليك بعض الأمثال: ففي الحوف الشرقي بنو سليم والقيسية وجذام.. وبنو عقبة بين أيلة (أيلات) أو العقبة وبين الحوف.. ثم انتقلت بطون من قريش إلى الأشمونين. وكان بينهم بنو جعفر بن أبي طالب وإليهم ينسب الجعافرة اليوم.. وكانت جهينة حول أسيوط، وفي الفيوم بنو كلاب. وانتقلت إلى الغربية وقليوب. وفي الدقهلية سكن عرب ينتسبون إلى قريش. وسكن حول دمياط قوم هوازن. ثم بدأت في القرن الخامس الهجري هجرات أخرى، فنزلت سنبس في البحيرة، يجاورهم قوم من كنانة بن جذيمة، ومن بني عدي بن

كعب رهط عمر بن الخطاب، ونزل العمريون البرلس.. وكان آل عمرو بن العاص وآل عبد الله بن سعد يذهبون في الربيع إلى منوف ووسيم، وتذهب عدوان إلى بوصير. وتذهب فهم إلى أتريب وعين شمس ومنوف.

كانت مصر كما خلقها الله أقرب وأطيب ما يألفه العرب. نخلة باسقة سمراء، تضرب جذورها في خط الاستواء، وتهتز فروعها الخضراء في الدلتا. وهناك تنشر جناحيها في آسيا وإفريقية، لتربط العرب بأصولهم وفروعهم في قارتين. وكأنما أعدت كثبانها الصفراء في الصحراء، وشطآنها الخضراء في جنبات الوادي، لتكون مغدي ومراحا للعرب.

obeikandl.com

في القرن التاسع للهجرة أورد المقريزي (٧٦٩ – ٨٤٥) أسماء القبائل العربية ومقارها مفصلة بالديار والقرى، يظهر منها القارئ على ديارهم في خريطة مصر المعاصرة، وكأنهم لم يتركوا منها موقعا إلا عمروه، ليصيروا الأرض الخضراء عربية، ويصيروا أجيالها

اللاحقة عربا أبناء عرب [٥٥]. ومن أسلم تعرب.

---

(٥٥) من جرم وجذيمة، وسنبس بالبحيرة وبني قرة – وقد عظم أمرهم أيام الفاطميين والأيوبيين ولهم وقائع في سخا من الغربية – وعذرة ومدلج وكنافة وبني عدي بن كعب رهط أمير المؤمنين عمر وكانوا في نوبة دمياط هم والكنانيون. ومنهم من ولي كتابة السر للملوك بالقاهرة ودمشق نحو مائة عام. وجذام وفيها بطون، سويد وزيد، وروح، وقراط، وحرام، وحشم، وغطفان، ونبيح وحطمة، وطريف.. وكان من بني سويد الأمير زين الدولة طريف بن مكنون. وفي جذام خمس سعود.. أكثرهم مشايخ البلاد وخفراؤها، ومساكنهم من منية غمر إلى زفيتا ومنهم الوزير وإليه ينسب بنو شاور كبار منية غمر. ومنهم أهل برهمتوش.

ولما قدم الغز صحبة أسد الدين شركوه إلى مصر، كان بها من العرب طلحة جعفر وبلى وجهينة ولخم وجذام وشيبان وعذرة وطي وسبنس وحنيفة ومخزوم. وفي جرائد الدولة الفاطمية منهم ألوف. وجذام قدموا من عمرو بن العاص. وكانت لهم إقطاعيات منها هربيط وتل بسطة ونوب ورم. وكانت فاقوس لهلبا سويد.. والبرامون للحيادرة. ولمهيا بن علوان كفر برسوط بنواحي مرصفا. وللشواكرة شنيارة بني خصيب. وقرارة بني سعد تل طنبول إلى نوب طريف. ومنهم بدقدوس ودمريط وضواحي القاهرة إلى أطراف الشرقية. وبالإسكندرية جذام ولخم وبالبحيرة والغربية طوائف من مزاته وبقليوب طوائف من فزارة ومنهم بنو تفايه بأطراف الشرقية والمنوفية وفرقد.. وفي طينة تنيس عرب كانوا بعمل تنيس.. وفي الدقهلية والمرتاحية عرب الحماسة..

وأذن هشام في إلحاق ثلاثة آلاف من بني سليم فأنزلهم الحوف الشرقي.. بلبيس فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم (السويس) فكان الرجل يصيب في الشهر عشرة دنانير.. وبلغوا بعد ذلك بسنين خمسة آلاف وخمسمائة أهل البيت ما بين صغير وكبير.

وفي الصعيد. في أسوان بنو هلال. وفي أخميم وما تحتها بلي. وفي منفلوط وأسيوط جهينة وفي بلاد الأشمونين قريش وفي معظم بلاد البهنسا لواته. ومنهم طوائف بالجيزة والمنوفية والبحيرة. وببلاد الفيوم بنو كلاب.

وبنو هلال بأخميم منهم بنو قرة – وساقية قلته بنو عمر. وباصفون وإسنا بنو عقبة. وسير عمر من الشام ثلث قضاعة إلى مصر.. ومنهم بنو شاد.. وهم بطوخ وبنو حماد وهم بمنفلوط وبنو حيار وهم بفرشوط. وأكثر عرب الصعيد من جهينة ونزلوا في بلاد أخميم.. وقريش.. ومن بطونها الجعافرة بنو جعفر الطيار نزل بعضهم بجرجة مير من أعمال أسيوط.. وبجرجة منفلوط قوم من بني الحسن بن علي.. وفي سيوط طائفة من أولاد جعفر الصادق.. يعرفون بأولاد الشريف قاسم وكانت بلاد الأشراف التي ينزلون بها هم وهمواليهم.. من الأشمونين بحري اتليدم.. ومنهم ينتسبون إلى أبي بكر الصديق ومنازلهم بالبرجين وطما. والعمريون ينسبون إلى عبد الله بن عمر وبلادهم البهنسا وما يليها. وبنو مخزوم يزعمون أنهم من خالد بن الوليد.. وبنو شيبة.. بنواحي سفظ. وبنو أمية منهم ولد أبان بن عثمان.. وديارهم تندة وما حولها.. وبنو سهم من ولد عمرو بن العاص بفسطاط مصر.

قدم صعيد مصر أولاد الكنز.. في خلافة المتوكل.. وكانت عيذاب لبني يونس ومنهم كنانة. وبنو الليث منهم سكان ساقية قلته.. والأنصار من قبائل الأزد.. ومنهم بنو محمد وبنو عكرمة وديارهم بحري منفلوط.. ومنهم عوف بالفيوم والبحيرة ومنهم فزارة: منهم جماعة بالصعيد وجماعة بضواحي قليوب. ومنهم لواتة.. ومنهم بنو بلال بالهنساوية وبالجيزية ولهم سمالوط إلى الساقية. ولبني بركين أقلوصنا إلى بحري طنيدي ولبني حد وخاص الكفور وسقط وجرجة أهربت ومنهم بنو زيد ومساكنهم نويرة دلاص.

وفي المنوفية من لواته بنو يحيى.. وهوارة تتناسب بطونها كما ينتسب العرب. نزلوا وبلاد البحيرة وبلاد الصعيد أنزلهم الظاهر برقوق سنة ٧٨٢، تخمينا، إذ أقطع إسماعيل بن مازن ناحية جرجا.

وبصعيد مصر لخم. منها بالبر الشرقي بنو سماك: وهم بنو مر، وبنو مليح، وديارهم من طارف ببا إلى منحدر دير الجميزة.. وبنو أشتوه من مسجد موسى إلى اسكر ونصف بلاد أتفيج.. ولبني الشريف من ترعة

وصارت لمصر مدرستها القوي في آداب اللغة العربية والشعر والنثر والسير والتاريخ منذ ولي عبد العزيز بن مروان (٦٥ – ٨٦) فأقبل على تعريبها وتعميرها، وبني مدينة حلوان الضاحية العظيمة للقاهرة الآن. وكانت الخلافة مفضية إلى عبد العزيز بعد أخيه عبد الملك فغدا أمل الشعراء. جاءه كثير عزة بين مادحيه، وجميل بثينة، وأيمن بن خريم، وعبد الله بن الحجاج، وجاءه نصيب، فأبقاه عبد العزيز معه، وجاءه عبد الله بن قيس الرقيات.

وكان يستبقي الشعراء بمصر ليملؤوها أدبا.

وتولى مصر بعده أخوه عبد الله.. فتتابع وفود الشعراء ومواكب الشعر منذ القرن الأول، تنتعش وترتاش من سيب الولاة وعيون الدولة.

ووفد أبو العباس الناشئ الأكبر، وكان من كبار النحاة والشعراء، والمعلي الطائي الشاعر.

الشريف إلى معصرة بوش.. ولبنى عمر منهم نصف حلوان. ولبنى حرة النصف الآخر من حلوان ونصف طرا.. إلخ.

روى القلقشندي (٧٥٦ – ٨٢٧) في صبح الأعشى إن إمرتهم كانت في الوجه البحري في خمسة أعمال: في الشرقية. وفي المنوفية. وفي الغربية. وفي البحيرة. وفي برقة. وفي الوجه القبلي كانت في ثلاثة أعمال: في قوص وفي البهنسا وفي الأشمونين. ومنهم من سمت نفسه إلى السلطنة حتى ظفر به الظافر بيبرس. قال القلقشندي (أما في زماننا فمنذ وجهت عرب هوارة وجوهها من عمل البحيرة إلى الوجه القبلي فنزلت به انتشرت في أرجائه انتشار الجراد وبسطت يدها من الأعمال البهنساوية إلى منتهاه حيث أسوان وما والاها).

ومن بضع سنين قبل مجئ الشافعي كان أبو نواس بمصر يمدح الخصيب والي الخراج. كما وفد أبو تمام بعد وفاة الشافعي ببضعة أعوام، كما سيفد البحتري والمتنبي. كما وفد دعبل الخزاعي والشافعي بمصر، فولاه المطلب الخزاعي إقليم أسوان فلم تطب نفسه.

ولم يتوقف تيار رواة السير والمغازي والتاريخ. فوفد إليها عبد الملك بن هشام صاحب السيرة النبوية وكان من كبار الأدباء فبقي فيها إلى ما بعد وفاة الشافعي.

وسيفد كثيرون آخرون منهم ابن جرير الطبري والمسعودي والبخاري، وطلاب الحديث والفقه، من أرجاء العالم الإسلامي كله.

obeikandl.com

فترة إقامة الشافعي بمصر:

كان الشافعي بمكة سنة ١٩٤ عندما ثار أهل تنووتمي (زمام الجيزة وميت غمر الآن) على الوالي حاتم بن هرثمة. وبعث إليهم الأمين جندا بين قوادهم السري بن الحكم وعبد العزيز الجروي، فهزموا الثوار. وفي سنة ١٩٥ ولي مصر جابر بن الأشعث الطائي، فلما خلع الأمين أخاه المأمون شغب عليه الأمراء والولاة.

وافترض السري بن الحكم الفرصة ليبحث لنفسه عن مكان، فظهر أمره.. وظل منذ قدوم الشافعي حتى وفاته مركز الأحداث بمصر.

ولما عين المأمون واليا جديدا صار "السري" من قواده، ثم عزل المأمون الوالي سنة ١٩٨. وولي العباس بن موسى فقدم ابنه عبد الله نائبا عنه سنة ١٩٩ – وكان معه محمد ابن إدريس الشافعي.

وتشغب الجند على عبد الله، فقطع أرزاقهم فأعادوا الوالي المعزول. ومات العباس ابن موسى مسمما. وثار "الجروي" في تنيس (٥٦) وعبأ جنده في مراكب حتى نزل بشطنوف، فسير إليه الوالي جيشا على رأسه "السري" فأسر السري في سنة ١٩٩. ثم أطلق الجروي سراحه

---

(٥٦) اسم يطلق على بحيرة المنزلة وعلى جزيرة في الشمال الشرقي منها قريبا من بورسعيد الحالية، وعلى أكبر مدينة في هذه الجزيرة – كانت بها مجار، وجنان وكروم وأشجار ومزارع. أهلها مياسير، وبها تحاك ثياب لا يصنع مثلها في الدنيا. ومنها، ثوب للخليفة لا يدخل فيه من الغزل سوى أوقيتين، والباقي نسيج من الذهب، قيمته ألف دينار – يبلغ عدد دكاكينها في أيام ازدهارها عشرة الآف. منها مائة دكان عطار. ويرابط حولها دائما ألف سفينة للتجار وللسلطان.

obeikandi.com

ليحارب معه ضد الوالي. فانتصرا. وخرج الوالي في البحر الأحمر إلى مكة سنة ٢٠٠.. وولي الجند السري بن الحكم على مصر، فسار الجروي إلى الإسكندرية واستولى عليها فبقيت معه الإسكندرية وتنيس فأمسى شبه مستقل بمنطقة تدعى مملكة الساحل – وكان السري واليا مسيطرا في الداخل، شبه مستقل بالبلاد عن بغداد هو الآخر.

وفي سنة ٢٠٠ احتل الإسكندرية خمسة عشر ألفا من أهل قرطبة يقال لهم "الربضيون"، طردوا من الأندلس لثورة قاموا بها. فسار إليهم الجروي في خمسين ألفا.. وخالفه السري إلى حاضرته – تنيس – فانكفأ "الجروي" راجعا من الإسكندرية. وفتحت الإسكندرية أبوابها لجند السري في سنة ٢٠١. وعزله المأمون بوال جديد، هزم "السري" وقبض عليه ونفاه إلى أخميم.

وآثر الوالي الجديد بطانته على الخراسانيين فثاروا عليه، فهرب. وجاء كتاب المأمون لتولية "السري" فأخرج من الحبس ليعود واليا في الفسطاط سنة ٢٠١.

وخطب السري رد المصريين، وكان يقدم الشافعي ولا يؤثر أحدا عليه، حتى إذا ثبتت أقدامه أدار وجهه لأعدائه، فأعمل فيهم القتل والصلب والنفي من البلاد. لكن إعظامه للشافعي ظل فوق مشاكل الساعة.

ولما ثار على المأمون عمه إبراهيم، كتب إبراهيم إلى وجوه الجند بمصر بأمرهم بالوثوب بالسري، فثاروا عليه ومعهم "الجروي"، وخرج "السري" يلاقي أعداءه واحدا إثر واد في الإسكندرية وفي الصعيد وفي شطنوف. حيث انهزمت جيوشه، وأقبلت جيوش "الجروي" في مراكبه إلى الفسطاط لتحرقها. فخرج إليه أهل المسجد – والمسجد على الشاطئ – وسألوه الكف عنها، فانصرف عنها سنة ٢٠٣.

وثار الأندلسيون بالإسكندرية على عامل الجروي – وكان قد غلب عليها ثانية – فسير إليهم جنده فبلغوا الإسكندرية في شعبان سنة ٢٠٤. ونصب "الجروي" عليها المجانيق. وأصابته فلقة حجر منجنيق فمات سلخ صفر سنة ٢٠٥. ومات السري في العام نفسه. وتولى ابنه ليحارب ابن الجروي من جديد.. وبعث المأمون واليا وجيشا يحارب ابنا آخر للسري، وانهزم الوالي سنة ٢٠٧. وكأنما خلصت مصر لولدي السري والجروي يتحاربان عليها. فبعث المأمون أعظم قواده عبد الله بن طاهر. فدخل الإسكندرية سنة ٢١٢. وأخرج الأندلسيين إلى جزيرة كريت فملكوها.. ثم انتفض الوجه البحري، عربه وقبطه، سنة ٢١٦. فقدم المأمون نفسه سنة ٢١٧ ليقيم تسعة وأربعين يوما يخمد فيها الفتنة، ويقضي منها أياما ثلاثة في حلوان، حيث أقام خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز..

ولقد كانت بعض الفريقين المتحاربين تبلغ الخمسين ألفا. والحرب لا تشهد معركة حاسمة. مما يشير إلى أن الفيالق متكافئة. وتعبئة مائة ألف أو أكثر من المحاربين تحتاج لمئات الآلاف أو أكثر من غير المحاربين. دعك من المحايدين. فالعرب بمصر من المحايدين والمحاربي وغيرهم تجاوزت عدتهم المليون بكثير، وربما بلغوا الملايين في ذلك العهد أو قريبا منه. في حين لم تبلغ عدة الروم بها عند الفتح العربي مائة ألف، بعد قرون ستة.

***

كانت أيام غدر من الولاة وغدر بالولاة. فيها انعكاس صادق لحال المسلمين أيامئذ. فالعرب من أهل البلاد منقسمون انقسامهم في كل مكان. وفي البلاد مسترزاد ومذهب للطامعين. وعلى الساحل دولة تضاهي دولة الداخل. والوالي الذي يصحب ابنه الشافعي تتعثر أولى خطاه،

أما الوالي الآخر "السري" فيصفيه الود. لكن الأيام لا تكاد تصفو للسري، فتحدق جيوش أعدائه بالفسطاط. ويخرج أهل المسجد ليكفوا عنها خطر الغزاة.

كل أولئك يجري بمصر، لا تكاد تقلب صفحة واحدة من صفحات الزمن حتى يحدث خطب قد يكون جديرا باشتراك الإمام الشافعي.. لكنه يتراءى للتاريخ بعيدا كأنه لم يكن هنالك.. لقد أجاءه إلى الجامع العتيق قدره ليجلس فيه مجلس الأئمة.. فوق العباسيين والخراسانيين والربضيين، والمتحاربين.. درس تعلمه على أستاذ مكة عبد الله بن عباس يوم بايع لمعاوية ثم لم يتدخل في السياسة حتى مات.

ومع أن حلقة الشافعي كانت تضم جوانبها أحيانا على مناقدات الشعراء والفقهاء فلم نسمع أنه تطرق إلى خلافات الحكام، أو مس، ولو بالرأي، الحرب التي تدور رحاها قيد خطوات من الجامع العتيق.. تريد رأس الوالي. والوالي يكرمه يعظمه ويستمع إلى موعظته "انظر من يكون صاحبك فإنه يحبك أو يبغضك. وانظر من يكون كاتبك فإنه يعبر عن عقلك الظاهر إلى الناس. وعف عن أموال الناس يكثر شكرهم لك. وإياك والانبساط إلى رعيتك فتذهب بذلك هيبتك".

لقد سبق الأستاذ فسما بفكره على خلافات الساسة ونزاعات لاساعة. وما كانت السفائن التي ألقت مراسيها عند عتبات الجامع العتيق إلا ذكريات منفرة، أو صورا مصغرة، للفتن التي عرفها من سنوات طويلات واتخذ منها مواقفه بشجاعة.

ولقد استطاع أن يسمو بنفسه صعدا فيحدد مقامه من هؤلاء وأولاء، فلا تتلاقى آفاقهم مع آفاقه. فحروب الجروي والسري والربضيين وأمثالهم، تدور في فلك أدنى لا يكاد يراه.

والسلطة مد وجزر، هما مشغلة لأهل الشاطئ، لا للربانية الكبار، في أعالي البحار.

obeikandl.com

الفصل الثاني

الفقه في مصر

صدر جوستنيان مدونته التشريعية للشباب في القسطنطينية سنة ٥٣٣ للميلاد بقوله: "لا يجد صاحب الجلالة الإمبراطور بدا من الاعتماد على ركنين: الأسلحة والقوانين" وسيبقى ذلك القول طابع الحضارة الغربية التي توارثت حضارة الرومان: حضارة القوة تخدمها القوانين. أما الحضارة الإسلامية فحضارة الدين تخدمه القوانين، ومن ثمة الفوارق العظيمة بين "المادية التشريعية" في الغرب حيث المال والقوة والسيطرة – وحيث الإنسان مجال لإنسان آخر يستثمر فيه اقتداره، وبين "الحنيفية السمحة" التي تتغيا مصلحة الجماعة في نطاق القيم الإسلامية.

تعاقبت على مصر ثلاثون أسرة مصرية، وغزاها الرومان سنة ٣٠ ق. م حتى إذا كانت سنة ٢١٢ منح "كراكلا" الجنسية الرومانية إلى رعايا البلاد المفتوحة فطبقت القوانين الرومانية بمصر.

دون الرومان مصادر القوانين الرومانية في الألواح الاثنى عشر من خمس قرون قبل الميلاد سنة ٤٤٩ – ٥٤٠ ق. م، لكن القوانين المصرية كما قال ديو دور الصقلي منذ عهد الرومان "كانت منذ آلاف السنين وما تزال جديرة بالإعجاب، وأعجب بها العالم فعلا". فلم تتغير القواعد المصرية التي تحكم علاقات الناس بقواعد رومانية. بل دلت الكشوف الحديثة على أن القوانين الرومانية ذاتها ترجع إلى القوانين المصرية القديمة فلا تفهم القوانين الرومانية، وخاصة المدنية منها، إلا إذا ألم الإنسان بأصولها التي وضعها قدماء المصريين. وهم أول من فحص أحكام البيع والشراء.. وأوجبوا الكتابة أو الإقرار لإثبات ما ينشأ عن العقد المكتوب، وحرموا زيادة

الفوائد عن ثلث رأس المال في السنة وعن أصل الدين مهما طال الأجل، وحرموا الربح المركب، ومنعوا استرقاق المدين للوفاء بدينه. بل إن ما في الألواح الاثنى عشر ذاتها، من قانون طبيعي، كان تقليدا لمصر..".

وقال ديودور "ارتقت مصر إلى حد بعيد لم تبلغه دولة سواها، بفكرة الحقيقة والخير والعدل المجردة، وقدستها، فحولتها إلى مبادئ دينية.. فلا عجب أن يكون منها قول الإنسان أمام قاضيه الأعلى يوم الحساب إنه لم يصنع الأذى بمخلوق آخر. ولم يقصر في واجباته قبل الآخرين.. تلك الواجبات التي تصل إلى واجب الإحسان للآخرين".

كان الشعب طبقات هي الأمراء والكهنة والجنود والمزارعون والصناع والعبيد.. الأبناء يتوارثون حرف الآباء. وللزوجة، حق التصرف في أموالها، أو الحق الذي يتفق عليه الزوجان، من جعل المال شركة بينهما، أو يخصصان بعضه لنفقات الأسرة، وللزوجة الشرعية الأولى منع الزوج من التصرف في ماله دون موافقتها، وللزوجة الرهن العام على أموال الزوج. وكانت الأراضي موزعة على القرى. لأهل القرية الزرع وللدولة الرقبة. وليست محلا للتعامل، حتى ملكها (بوكوريس) للناس، فلما غلب على أمره عادت للمعبود آمون، وكان للقاضي تحرير العبد إذا ظلمه سيده.

وكانت مصر بحاجة إلى الإسلام لينقلها من واقعها المغلوب على أمره، إلى فرصتها الكبرى لتمكن لدين الله، ولتنقل رسالته إلى إفريقية وأوربة.

ودخل الإسلام مصر سنة ٦٣٩ – ٦٤٠ بعد الميلاد. وجاء الشافعي بعد ذلك بشيرا بذيوع الإسلام وحاجة الشعب والعلماء إلى التفقه في الدين.. وانشغل بالواقع المصري الذي

سيطر على الرومان واليونان والغزاة أجمعين، والذي استبقى لمصر حضارتها، مذ وضع الملك (بوكوريس) القوانين المصرية قبل ألواح الرومان بقرون.

***

لقد استقبل المصريون المسيحية متدينين بدين قديم يقرر النشور والحساب. فلما صاروا نصارى حملوا المشاعل المسيحية، حتى إذا دخلوا في الإسلام حملوا مصابيح الهداية الإسلامية بقدم صدق وقوة. كان منهم غير واحد صحب النبي، مثل جبر بن عبد الله (٦٣) وأبي رافع القبطي مولى النبي، راوية الحديث عن عبد الله بن مسعود عن النبي. وسيكون أبو حنيفة الأسواني القبطي – قحزم – (٢٧١) آخر من مات من تلامذة الشافعي.

وانتشرت قراءة ورش بمصر وانتقلت إلى إفريقية فكانت مشاركة مصرية في علوم القرآن – وهو عثمان بن سعيد أجداده من الأقباط. ولد بمصر سنة ١١٠، وقرأ على نافع بالمدينة، وعاد ليموت بمصر سنة ١٩٧.

وجاء إلى مصر بعد الفتح مائة وأربعون صحابيا ونيف، يسميهم المؤرخون (المحدثين المصريين). منهم أبو ذر الغفاري يقول فيه عبد الله بن عمر (ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر) [٥٧] ومنهم الزبير بن العوام قائد المدد الذي أمد به عمر عمرا

---

(٥٧) مذهب أبي ذر إنفاق ما فضل عن الحاجة من المال ومن لم يفعل كان من الكانزين. وكان لا يفتأ يغلظ القول للأغنياء في الشام لاكتناز الأموال. فكتب معاوية إلى عثمان يشكوه، فاستقدمه عثمان إلى المدينة. وكان منه فيها مثل ما كان منه في الشام. فأشار عليه عثمان بالتنحي عن المدينة. فاختار الربذة – على ثلاث مراحل من المدينة – إلى أن مات سنة ٣٢.

وفاتح حصن بابليون، وسعد بن أبي وقاص فاتح العراق، وعبد الله بن عمرو (٦٥) كان يلوم أباه على الدور الذي لعبه في فتنة علي ومعاوية، ولما مات أبوه ولاه معاوية بدله، ثم لم يلبث أن عزله. قرأ التوراة وعرف السريانية وأصاب جملة من كتب أهل الكتاب. وحمل عنه المصريون علما كثيرا. واستقى أصحاب الكتب الستة بعض الأحاديث من تلاميذ تلاميذه المصريين. وكانت الصحيفة التي جمع فيها الأحاديث تسمى "الصادقة" وهي من أول المدونات في السنن. وجاء في أثرهم علماء آخرون منهم ابن هرمز (١١٧) وأبو يونس مولى أبي هريرة (١٢٣) وعمرو بن الحارث حافظ السنن (١٤٨) ويونس ابن يزيد الإيلي (١٥٢) صاحب الزهري.

وجاء إلى مصر نافع مولى عبد الله بن عمر، أرسله عمر بن عبد العزيز ليفقه المصريين، وعمر نفسه قد سبقت له الإقامة في "حلوان ضاحية الفسطاط. ثم أذن عمر بالإفتاء لجعفر ابن ربيعة وعبد الله بن جعفر ويزيد بن حبيب (١٧٤):

ويزيد أستاذ ابن لهيعة والليث بن سعد. ولي القضاء للمنصور عشر سنين (١٥٥ – ١٦٤). مرض يوما فعاده الأمير فسأله: يا أبا رجاء. ما تقول في الصلاة في الثوب وفيه دم البراغيث؟ فحول وجهه ولم يكلمه.. فنظر يزيد وقال: تقتل كل يوم خلقا وتسألني عن دم البراغيث!

***

وفي القرن الثاني سطع في مصر نجم ثاقب هو الليث بن سعد (٩٣ – ١٧٥) ولد في قلقشندة من أعمال القليوبي فامتاز بين العلماء منذ حداثته. وذات يوم وردت مسألة فذكر فيها قول الليث فقال رجل ما أحسن ما قال الليث. كأنه كان يسمع مالكا يجيب فيجيب! قال ابن وهب

تلميذ مالك (بل لعل مالكا كان يسمع الليث يجيب فيجيب. والله الذي لا إله إلا هو ما رأينا أحد قط أفقه من الليث).

ولقد أسف الشافعي على فوات لقيه، فهو من أساتذته وإن لم يلقه.

تعلم الشافعي فقه الليث من يحيى بن حسان في اليمن وسيتعلمه فيما بعد بمصر. يقول الشافعي فيه (العلم يدور على ثلاثة – مالك والليث وسفيان بن عيينة) وسيتأثر الشافعي بالواقع المصري، فيكون له بمصر آراء فقهية جديدة في مسائل، كما سيتفق مع الليث في مسائل.. وسيبقى الليث في تاريخ الفقه إماما مسموع الكلام يمثل العلم في مصر في القرن الثاني للهجرة. كما سيمثله الشافعي في كل تاريخها بعده..

كان لليث في اليوم أربع مجالس: مجلس يشير فيه على الوالي، ومجلس للحديث، ومجلس للقضاء ومجلس لحوائج الناس. رحل مرة إلى الإسكندرية في ثلاث سفائن – واحدة لعياله، وأخرى لأضيافه، وثالثة لمطبخه. وكان يطعم الفقراء الخبز والحلوى ويطعم نفسه خبزا رديئا – ومن رواياته عن الرسول أحاديث "كان رسول الله ينهي إذا كان ثلاثة نفر أن يتناجى اثنان دون واحد" و"لا يقيمن أحدكم الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه" و"وجدت امرأة في بعض مغازي الرسول مقتولة. فأنكر قتل النساء والصبيان".

قالوا: كان مالك يعنيه عندما يقول: أخبرني من لا أتهم من أهل العلم. وكان يجادل مالكا في العلم والفقه في حلقات المدينة، وفي الكتابات المتبادلة [٥٨].

---

(٥٨) نثبت هنا بعض المناقضات بين الإمامين. فهى نواة نظريتين فقهيتين ومحاورات شخصيتين متكافئتين – جاء في كتاب من مالك (سلام عليكم. فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو. أما بعد. عصمنا الله وإياك بطاعته في السر والعلانية وعافانا وإياكم من كل مكروه.

واعلم رحمك الله أنه بلغني أنك تفتي الناس بأشياء مختلفة عما عليه الناس عندنا وببلدنا الذي نحن فيه. وأنت في أمانتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك وحاجة من قبلك إليك واعتمادهم على ما جاءهم منك، حقق بأن تخاف على نفسك وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه. فإن الله تعالى يقول في كتابه: (والسابقون الأولون من المهاجرين الأنصار) الآية. وقال تعالى: (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) الآية. فإنما الناس تبع لأهل المدينة التي كانت إليها الهجرة، وبها تنزل القرآن، وأحل الحلال وحرم الحرام إذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، يحضرون الوحي والتنزيل وبأمرهم فيطيعونه ويسن لهن فيتبعونه، حتى توفاه الله واختار له ما عنده صلوات الله وسلامه عليه).

ثم يتكلم إمام دار الهجرة عن مكانة الصحابة فيقول: (ثم قام من بعده أتبع الناس له من أمته ممن ولي الأمر من بعده. فما نزل بهم، وما لم يكن عندهم فيه علم، سألوا عنه ثم أخذوا بأقوى ما وجدوا في اجتهادهم وحداثة عهدهم، وإن خالفهم مخالف أو قال امرؤ غيره أقوى منته وأولى ترك قوله وعمل بغيره) وينتقل الكتاب إلى دور التابعين فيقول: (ثم كان التابعون بعدهم يسلكون تلك السبيل ويتبعون تلك السنن. فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهرا معمولا به لم أر لأحد خلافه، للذي في أيديهم من تلك الوراثة التي لا يجوز انتحالها أو ادعاؤها. ولو ذهب أهل الأمصار يقولون: هذا العمل ببلدنا. وهذا الذي مضى عليه منا. لم يكونوا فيه من ذلك على ثقة..)

وفي رد الليث عليه يقول:

(ولا أجد أحدا ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا، ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا، ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه، منى.. فإذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصر والشام والعراق على عهد أبي بكر وعمر وعثمان ولم يزالوا حتى قضوا لم يأمروهم بغيره، فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين أن يحدثوا اليوم أمرا لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم، مع أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اختلفوا بعد الفتيا في أشياء كثيرة ثم اختلف التابعون.. سعيد بن المسيب ونظراؤه أشد الاختلاف. ثم اختلف الذين من بعدهم فحضرتهم بالمدينة وغيرها، ورأسهم يومئذ ابن شهاب وربيعة بن عبد الرحمن.

وكان من خلاف ربيعة لبعض ما مضى ما قد عرفت وحضرت وسمعت قولك فيه وقول ذوي الرأي من أهل المدينة.. حتى اضطرك ما كرهت من ذرك إلى فراق مجلسه، وذاكرتك أنت، وعبد العزيز بن عبد الله.. فكنتما من الموافقين، ومع ذلك بحمد الله عند ربيعة خير كثير. وكان يكون من ابن شهاب اختلاف كثير إذا لقيناه. وإذا كاتبه بعضنا فربما كتب له في الشيء الواحد على فضل رأيه وعلمه ثلاثة أنواع ولا يشعر بالذي مضى من رأيه في ذلك..

ومن ذلك القضاء بشهادة الواحد ويمين صاحب الحق..)

وانتقل الليث من العموم إلى الخصوص. إلى مالك نفسه يصوبه: (قد بلغنا عنكم شيء من مستكره، وقد كنت كتبت إليك في بعضها فلم تجبني.. فتخوفت أن تكون استثقلت ذلك..) ويختتم كتابه بكلمات في إخوة العلماء فيقول (وقد تركت أشياء كثيرة أشباه هذا وأنا أحب توفيق الله إياك. وطول بقاءك لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة وما أخاف من الضبعة إذا ذهب مثلك، مع استئناسي بمكانك وإن نأت الدار. فهذه منزلتك عندي ورأيي فيك فاستيقنه. ولا تترك الكتابة إلي بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك وحاجة إن كانت لك أو لأحد يوصل به. فإني أسر لذلك والسلام عليكم ورحمة الله).

ولما عارض علي بن سليمان إقامة الكنائس المحدثة بمصر استشار خليفته موسى بن عيسى العباسي الفقهاء، فأجاز الليث وابن لهيعة بناءها. واحتج الفقهاء بأن الكنائس التي بمصر ما بنيت إلا في عهد الإسلام في زمن الصحابة والتابعين.

أراد المنصور أن يولي الليث أمر مصر فأبى. فأمر ألا يتصرف الوالي إلا بموافقته فكان إذا رابه من أحد شيء كاتب فيه فعزل، وكانت له قرية بتمامها يجئ إليها خراجها فيعطي الناس منها صرة، صرة، فلا يبقى إلا اليسير.

أفتى الرشيد في يمين حلفها مرة فأمر له بخمسة آلاف درهم. قال: أعطها لمن هو أحوج مني.. وذات يوم دخل دمشق فقال له قائل: إني عبد أبيك ومعي تجارة بألف دينار. فخذ مال أبيك وأعتقني إن شئت. فوهبه المال.. ووهبه نفسه.

وكان عبد الله بن وهب (١٩٧) يسمى (ديوان العلم). روى عن الليث وتلمذ لمالك. وكان مالك يكتب إليه (إلى عبد الله بن وهب فقيه مصر – وإلى (أبي محمد، المفتي) قالوا: ما من أحد إلا زجره مالك إلا ابن وهب. وهو صاحب "الجامع في الحديث" أقدم جامع للسنن في مصر، جمعها عن مالك في المدينة وابن لهيعة بمصر. هرب من ولاية القضاء حتى عثروا عليه في صحن داره يتوضأ. قال له قائل: ألا تخرج إلى الناس فتقضي بينهم بكتاب الله وسنة رسوله؟ قال: إلى هنا انتهى عقلك؟ أما علمت أن العلماء يحشرون مع الأنبياء، وأن القضاة يحشرون مع السلاطين!

وأما عبد الرحمن بن القاسم (١٢٣ – ١٩١) فتلقى العلم على مالك وعاد إلى مصر. وروايته للموطأ من أشهر رواياته. قال مالك (ابن وهب عالم وابن القاسم فقيه). ومدونة سحنون

لفقه مالك أسئلة إلى ابن القاسم وإجابات منه، رتبها سحنون واحتج لبعض مسائلها بالآثار من روايات ابن وهب وغيره للموطأ. وعن سحنون انتشر المذهب المالكي بالمغرب.

ولما أتم أسد بن الفرات الدرس على مالك بالمدينة قصد إلى الفسطاط وجمع حاصل الدراسات على ابن القاسم، في مجموعته المسماة "الأسدية". ومن أجلها رفعت أول قضايا الملكية الأدبية يوم عزم الطلاب أن يستنسخوها فأبى فترافعوا إلى عمرو بن مسروق الكندي فرفض دعواهم قائلا: وأي سبيل لكم عليه. رجل سأل رجلا فأجابه. ها هو ذا المسئول بين أظهركم فاسألوه كما سأل.

وتوجه القاضي – خارج الخصومة – برغبته إلى أسد فسلمها لهم حتى فرغوا منها.

وأما أشهب بن عبد العزيز (٢٠٤) تلميذ مالك والليث فانتهت إليه الرياسة بعد وفاة ابن القاسم.. وعن هؤلاء المصريين الثلاثة نقل المصريون مذهب مالك النقل الكامل، وإن كان قد سبقهم في نقله إليها عبد الرحمن بن خالد وعثمان بن الحكم الجذامي المتوفى سنة ١٦٣.

وفي أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث كان بمصر سعيد بن عفير، ويحيى بن بكير وعبد الله بن صالح، شيوخ "البخاري"، وأحمد بن يونس ويحيى بن يحيى التميمي وغيرهما من شيوخ "مسلم".

وكان بمصر كذلك عبد الله بن عبد الحكم تلميذ مالك وسفيان بن عيينة والليث وابن لهيعة. ولد بالإسكندرية سنة ١٥٥ ومات سنة ٢١٤، وله مؤلف مشهور في سيرة عمر ابن عبد العزيز ومؤلفات المختصر الصغير والمختصر الأوسط واختصار كتب أشهب، وهي في فقه مالك.

وكان بمصر في الوقت ذاته – (ذو النون) المصري – أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم، من كبار المتصوفين (١٥٥ – ٢٤٥) ينحو منحاه الفلسفي الخاص في التصوف والمعرفة ومحبة الله – ويحدث عن مالك والليث وابن لهيعة.

***

إلى جوار الفقهاء العظام، وجد القضاة الكبار، منهم: عبد الرحمن بن حجيرة. من سنة ٦٩ حتى سنة ٨٣. سأل رجل ابن عباس عن مسألة. قال له من أي الأجناد أنت؟ قال من أهل مصر. قال تسألني وفيكم ابن حجيرة؟ كان له اجتهادات جميلة: يرى المال جديرا بالتداول فلا يحجر على سفيه في ماله، ولكن يشهره وينهى الناس عن معاملته، ويقر ماله بيده يصنع ما يشاء. وهو الرأي الذي صار إليه أبو حنيفة. وابن حجيرة هو الذي يقول: لأن أسلف دينارين فيردان علي، ثم أسلفهما فيردان علي، أحب إلي من أن أتصدق بهما.

ولما ولي القضاء توبة بن نمر الحضرمي (١١٥ – ١٢٠) قال لامرأته لا تعرضن لي في شيء من القضاء ولا تذكرني بخصم، ولا تسألني عن حكومة. فإن فعلت شيئا من هذا فأنت طالق.. فكانت ترى دواته قد احتاجت إلى الماء فلا تأمر بها أن تمد خوفا من أن يدخل عليه في يمينه شيء.

لم يملك شيئا إلا وهبه ووصل به إخوانه وأفضل عليهم.. وكان يرى الحجر على السفيه والمبذر. فرفع إليه غلام لا تحوي يده شيئا إلا وهبه وبذره.

قال أرى أن أحجر عليك يا بني.

قال الغلام: ومن يحجر عليك أيها القاضي؟ والله ما نبلغ في أموالنا عشر معشار من تبذيرك. فسكت توبة ولم يحجر على سفيه بعد.. وقد اشتهر عنه أنه يقضي في الرجل الذي يفلس بصداق امرأته كاملا.. فما بقي من ماله كان الغرماء فيه أسوة.

وفيما بين سنوات (١٢٠ – ١٢٨) جعل القضاء والقصص لخير بن نعيم فكان يقضي في المجسد بين المسلمين. ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر على المعارج فيقضي بين النصارى..

روى الراوي عنه: كنت ألازم خير بن نعيم.. وكنت أراه يتجر في الزيت. فقلت له: وأنت أيضا تتجر؟ قال: انتظر حتى تجوع ببطن غيرك. قلت في نفسي. وكيف يجوع إنسان ببطن غيره؟ فلما ابتليت بالعيال إذا أنا أجوع ببطونهم.

وفي سنوات ١٤٤ – ١٤٥ ولي القضاء أبو خزيمة إبراهيم بن يزيد. كان يعمل الأرسان كل يوم رسنين (لجامين). واحد ينفق ثمنه على نفسه وأهله. والآخر يبعث به إلى إخوان له من أهل الإسكندرية. لكل واحد منهم رسن لنفسه. فلما ولي القضاء انقطع فبعثوا إليه يقولون: إنا لله وإنا إليه راجعون، إن كانت الدنيا مالت بك حتى تقطع ما كان الله يجريه على يدك.. قال معاذ الله. فكان يعملها ويبعث بها إليهم.

كان إذا اشتغل بشغل لم يأخذ من رزقه نظير ما اشتغل. وقال: أنا عامل للمسلمين، فإذا اشتغلت بغير عملهم فلا يحل لي أخذ ما لهم.

وولي القضاء عبد الله بن لهيعة (١٥٥ – ١٦٤) فكان أول قاض خرج لرؤية هلال رمضان إلى الجيزة. أعطاه الإمام الليث ألف دينار ليصلح حاله.

ووليه إسماعيل بن اليسع الكندي (١٦٤ – ١٦٧) وهو أول قاض حنفي.. قضى برأي أبي حنيفة في إبطال الوقف، فثقل أمره على الناس. وكانت له مع الليث بن سعد وقائع، فكتب الليث في غزله فأعفي.

ووليه غوث بن سليمان مرات. وهو الذي قضى بين أبي جعفر وبين أم المهدي، غذ لم تقبل إلا حكمه. قال بعث إلي أمير المؤمنين أبو جعفر قال: يا غوث إن صاحبتكم الحميرية خاصمتني إليك في شروطها. قلت أيرضى أمير المؤمنين أن يحكمني عليه؟ قال نعم – فقلت: إن الأحكام لها شروط.. يأمرها أمير المؤمنين أن توكل وكيلا. فوكلت خادما. وبعثت معه كتاب صداقها وشهد الخادمان على وكالتها. فقلت قد تمت الوكالة. فإن رأى أمير المؤمنين أن يساوي الخصم في مجلسه؟.. فانحط عن فرشه وجلس مع الخصم ودفع إلى الوكيل كتاب الصداق. فقرأته عليه. فقلت: يقر أمير المؤمنين بما فيه؟ قال نعم. قلت في الكتاب شروط مؤكدة.. أرأيت يا أمير المؤمنين لو خطبت إليهم ولم تشترط لهم هذا الشرط أكانوا يزوجونك؟ قال: لا. قلت.. وأنت أحق من وفى لها شروطها. قال: علمت إذ أجلستني هذا المجلس أنك ستحكم علي.

ثم أمر له بخلعة وجائزة. ثم أمر باحتباسه ليقضي بين أهل الكوفة. فقال: ليس البلد بلدي.. إيذن لي يا أمير المؤمنين في الرجوع إلى بلدي.

وشفع الطائي صاحب البريد في خصم إلى الحزمي القاضي (١٧٠ – ١٧٤) فكتب إليه القاضي: عليك تدبر دوابك وبراذعها وكنس بولها.. فكتب صاحب البريد إليه: تبطئ بالجلوس إلى الناس؟! وكتب إليه القاضي: إن كان أمير المؤمنين أمرك بشيء، وإلا فإن في أكفك وبراذعك ودبر دوابك ما يشغلك عن العامة. ثم استعفى.

***

كانت التقاليد المصرية ومجتمعها وحلقات جامعها العتيق معروفة للشافعي. وهو "الأصولي" لا يرحل رحلة إلا أن يتحراها، كمثل لما يتحرى المقدمات في قضايا المنطق.

فهبط أرض مصر ومعه تلميذه أبو بكر الحميدي. وسأله بعض الأكابر أن ينزل عنده. فقال أريد أن أنزل عند أخوالي من الأزد – قبيلة أمه – فذلك درس في الوفاء، تعلمه على النبي، عندما هاجر للمدينة فنزل عند أخواله بني النجار.

وقصد الشافعي بعد ذلك إلى دار عبد الله بن الحكم – وربما توشجت بينه وبين ضيفه الصلات في إبان دراسات عبد الله على مالك وسفيان، وستنتهي إليه رياسة المالكية بعد أشهب فلم يمنع ذلك الشافعي أن ينزل بداره. فتلك قربى العلماء.

قال له عبد الله: إذا أردت أن تسكن مصر فليكن لك قوت سنة ومجلس من السلطان تتعزز به.

قال: يا أبا محمد من لم تعزه الدنيا فلا عز له. وقد ولدت بغزة وربيت بالحجاز وما عندنا قوت ليلة. وما بتنا جياعا قط.

وعبد الله هو عبد الله بن الحكم بن أعين بن الليث – والليث من موالي عثمان بن عفان أو رافع مولاه، وزوجة الشافعي من حفدة عثمان. وبهذا قد تفهم بعض أسباب حفاوة عبد الله بالإمام أو نزوله بداره، فإنما كان بعضه حفاوة بعالم قريش، ووفاء لرابطة الولاء، وهو من قبل الشافعي وفاء وتحية.

وسنرى آثار ذلك فيما بعد، في تعليم ولدي عبد الله، وفي الحفاوة التي لازمت الإمام حين دفن في مقبرة القرشيين بين قبور أبناء عبد الحكم، فيكتب الخلود لابن عبد الحكم ذاته، من أجل وفائه.

obeikandl.com

الفصل الثالث

في جامع عمرو

فتح عمرو الإسكندرية – فرأى بيوتها وأبنيتها مفروغا منها فقال: مساكن كفيناها. وأرسل إلى أمير المؤمنين يستأذنه في أن يتخذها عاصمة للبلاد. فسأل عمر الرسول هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟ قال: إذا جرى النيل. فكتب إلى عمرو: لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول بيني وبينهم الماء في شتاء ولا صيف. فتحول عمرو من الإسكندرية وأقام "الفسطاط" سنة (٢١ – ٦٤١م) في موقعها الحالي على النيل. فاختط المسجد الذي يحمل اسمه، وأمامه دار الإمارة. واختط حوله الزعماء والقبائل.

ولما انتصر العباسيون بمصر أقاموا العسكر سنة ١٣٣ إلى شمال الفسطاط للأمير وللجند. وفي عهد السري بن الحكم – أذن للناس بالبناء حول العسكر. ثم أنشأ ابن طولون القطائع سنة ٢٥٦ بجوارها. وصارت كلها بعد، مدينة، واحدة يطلق عليها: مصر، أو الفسطاط.

وأطلق على المسجد حين أنشئ "مسجد أهل الراية" لتوسطه خطط أهل الراية من القبائل التي شاركت في الفتح. وسيزيده فيما بعد مسلمة بن مخلد سنة ٥٢ ويجعل له منارة. وسيعيد بناءه عبد العزيز بن مروان سنة ٩٧ وسيزيده قرة بن شريك وينصب المنبر الجديد سنة ٩٤. (فلا يعلم اليوم في جند من الأجناد أقدم منه بعد منبر رسول الله) كما يقول الكندي (٣٥٠). ثم يزيد فيه عبد الله بن طاهر مثله لتبلغ مساحته الحالية (١١٢.٥ × ١٢٠ مترا). وسيحمل أحيانا اسم (تاج الجوامع) أو الجامع العتيق، لينماز من المساجد التي ستشتهر بها الفسطاط أو القاهرة – مدينة المساجد.

هذا المسجد الذي لم تنقطع فيه الصلاة حتى اليوم، والذي سيدخل التاريخ باسم جامع عمرو، فيصير أشهر المساجد حتى ينشأ الأزهر، كان مثابة للناس وجامعة علوم، وملتقى للعلماء والفحول من الصحابة الأكرمين: أبي ذر الغفاري. والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص. وعبد الله بن عمرو ثم أجيال أخرى من الفقهاء والمتفقهين في الآداب واللغة والقصص والقراءة والفقه وغيرها.

كان يلقي دروس القصص فيه أبو رجب بن عاصم عندما دخل الشافعي مصر، وصلى خلف أبي رجب وأثنى على صلاته، تحية للسابقين ودرسا في الأدب.

وصنع الإمام بالفسطاط ما صنعه ببغداد عندما زار قبر أبي حنيفة أول ما وفد. فوقف على قبر إمام مصر الليث بن سعد تحية. وقال (لله درك يا إمام. حزت أربع خصال لم يكملن لعالم: العلم والعمل والزهد والكرم).. وكأنما كان يعني نفسه...

وكانت السيدة نفيسة حفيدة زيد بن الحسن بن علي قد تحولت إلى مصر مع زوجها إسحق بن الإمام جعفر الصادق، بعد أن حبس المنصور أباها مدة، وكان والي المدينة. وكانت ذات علم، تكبر الشافعي بخمسة أعوام، فلم يفت "ناصر الحديث" أن يسمع ما لديها منه.

obeikandi.com

أما مشيخة العلم في الفسطاط فكانت موزعة بين الحنفية وهم ضعفاء، وبين المالكية وهم قوة يتصدرها أشهب وعبد الله بن عبد الحكم معا. ومع أن مدرسة مصر جميعها قد تفقهت بالليث فإنها آثرت مذهب مالك.

***

دخل الإمام المسجد الجامع فتلاقت جماعات عطشى على المورد العذب كثير الزحام، تسبقه سمعته من مكة عاصمة الإسلام؛ أو المدينة دار السنة، أو بغداد عاصمة الخلافة – فلم يكن مجرد عالم أو أستاذ. وكان ابن عم النبي عليه الصلاة والسلام.. فأعظم به من إمام!

وانقسم أهل العلم بين مالكية وشافعية، وكان أول صدع في هيأة القيادة بدار عبد الله بن عبد الحكم ذاته. فأوجس المالكية خيفة.. قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم: كنت أتردد على الشافعي فاجتمع قوم من أصحابنا إلى أبي – وكان على مذهب مالك – قالوا له يا أبا محمد. إن محمدا انقطع إلى هذا الرجل وتردد غليه، فيرى الناس أن هذا رغبة عن مذهب أصحابه. فجعل يلاطفهم ويقول: هو حدث ويحب النظر في اختلاف أقاويل الناس ومعرفة ذلك. ويقول لي في السر: يا بني الزم هذا الرجل.

ولما أعلن محمد فيما بعد، أن الفقيه هو الذي يستنبط أصلا من كتاب الله تعالى أو من سنة رسول الله لم يسبق إليه، ثم يشعب من ذلك الأصل مائة شعبة، قيل له فمن الذي هو كذلك؟ قال: محمد بن إدريس الشافعي..

قالوا: قدم رجل من قريش فجئنا وهو يصلي فما رأينا أحسن صلاة منه ولا أحسن وجها، فلما تكلم ما رأينا أحسن كلاما منه، فافتتنا به.

وأهرع الناس في البلد المضياف إلى "زاوية الخشابية" التي عرفت به في جامع عمرو. فبهر الجمهرة بفعله وهو يتعبد، وخلب ألبابهم بقوله وهو يتكلم. فتحلقوا حوله: الأسماع مصيخة والعيون محدقة، ففي صلاته ونسكه دروس وعبر. وفي حديثه وقوله متعة للعين والأذن. يجيئهم بخلاصات العلم الإسلامي ومعاني الآي وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام في سمو وأصالة ويسر.. عن مالك عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله.. سلسلة الذهب – أو مالك عن الزهري عن سالم عن ابن عمر – أو مالك عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله.. أو من مدرسة الرأي مدرسة أبي حنيفة أو تلامذته أو أساتذته: يجادلها أو يصوبها ويزكي أساتذتها مع ذلك.. فاجتمع في دروسه المنهاجان: أهل الرأي وأهل السنة.. أسمر خفيف العارضين يخضب لحيته بالحناء حمراء قانية، حسن السمت حسن الصوت، طويلا، معتدل القامة واضح الجبهة رقيق البشرة، يلبس الثياب الرقيقة من الكتان والقطن البغدادي، وربما لبس قلنسوة، ويلبس كثيرا العمامة والخف.

وكان خطيبا أي خطيب، (إذا أخذ في التفسير كأنه شاهد التنزيل) كما يقول تلميذه يونس. وفي جامع عمرو كذلك تجلت خصيصة أخرى هي عذوبة الصوت في الأسماع، كالنغم ينصب في الأذن أو الفن، يأسر النفس ويكسر البصر. قال تلميذه المزني (كان إذا تكلم كأن صوته صنج أو جرس من حسن صوته).

وكان مهيبا أعظم المهابة. قال الربيع: والله ما جرؤت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إلي هيبة له.

***

وكان بذال أموال، لا تعلم يمينه ما تنفق شماله. قالوا جمع له عبد الله بن عبد الحكم ألفي دينار عندما قدم.. ولو جمعت لذهبت إلى الناس تفاريق. دخل عليه جار له بمصر خياط، فأمره بإصلاح أزراره فأصلحها فأعطاه دينارا ذهبا، فنظر إليه الخياط وضحك. قال الشافعي: خذه فلو حضرنا أكثر منه ما رضينا لك به. قال أصلحك الله إنما دخلنا عليك لنسلم عليك. قال الشافعي: فأنت إذن ضيف زائر. وليس من المروءة الاستخدام بالضيف الزائر.

وعندما تزوج الربيع، سأله كم أصدقتها؟ قال: ثلاثون دينارا. قال كم أعطيتها؟ قال ستة دنانير، فأرسل إليه بصرة فيها أربعة وعشرون دينارا.. وسيكون فيما بعد راويته وسيقوم على حوائجه. وسيدخله الشافعي في أذان الجامع سنة ٢٠١.

وكان لا يدعه دون توجيه إذا بدرت البادرة.. قال الربيع:

كان الشافعي مريضا فقلت: كيف تجدك. فقال: ضعيفا يا ربيع. فقلت: قوى الله ضعفك. فقال: إذن يقتلني، لأنه إنما هو ضعف وقوة، فإذا قوى الله الضعف قتل صاحبه.

فإذا صوب الربيع أو عاتبه، ياسره وداعبه.

روى الربيع أنه عمل وليمة، فلما أكل الناس قال البويطي اجلس فكل. فقلت من أذن لنا أن نأكل؟ فسمع الشافعي فقال: يا سبحان الله، أنت في حل من مالي كله.. ورآني كتبت حساب النفقة، فقال: لا تضيع قراطيسك باطلا، فلست أنظر لك في حساب. فقلت فإن أم أبي الحسن – يعني أم ولده – ربما طلبت الشيء فأشتري لها، ولم تأذن (أنت) لي. قال: يا طويل الرقاد، أنت في حل من مالي كله.

والسماحة واليسر والحلم سنة سيد المرسلين في كل ما علمه وعمله.. عرضت له – عليه السلام في – الحج امرأة جميلة من خثعم فسألته عن أبيها الشيخ الذي لا يستمسك على الراحلة، فأمرها أن تحج عنه.. وكان قد أردف ابن عمه الفضل بن العباس (١٣). وأخذ الفضل ينظر إليها. وكان وسيما. فوضع الرسول الأمين يده على وجه الفضل، وحوله إلى الشق الآخر.

وكان لأبي بكر غلام كلفه حفظ الزاملة التي تحمل متاعه ومتاع الرسول. فأضلها. فقام أبو بكر يضربه ويقول: بعير واحد تضله! فأخذ عله السلام يبتسم ويقول: "انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع".

والناس لا يصدقون إلا أن يكونوا مطمئنين.. والعلم لا يدخل الآذان إلا أن ترضى الأنفس عن صاحبه وتستحب طرائقه وترفقه.

كان ابن حزم (٣٨٣ – ٤٥٧) باقعة العصر بالأندلس. تخلى عن الوزارة ليخلص للعلم، وكان شافعيا متعصبا.. ثم ظاهريا من نفاة القياس متعصبا شديد التعصب. قالوا فيه: (لسانه وسيف الحجاج صنوان). فأمكن خصومه من نفسه وأضاع فرصته. قال ياقوت. فلم يك يلطف صدعه بما عنده بتعريض. ولا برقه بتدريج. بل يصك به معارضه صك الجندل.. حتى استهدف إلى فقهاء وقته.. فأجمعوا على تضليله.. وحذروا سلاطينهم.. ونهوا عوامهم.. وطفق الملوك يقصونه.. إلى أن انتهوا به. فتقطع أثره بتربة بلده.. وبها توفي.

أما حلقة إمام السنة فجديرة به وبالسنة، من تعليم للأدب العظيم، وألسنة عفيفة العذبات، نظيفة الجنبات مع الصدق والنصفة. خرج يوما من سوق القناديل فإذا رجل يسفه على رجل من أهل العلم، فالتفت الشافعي إلى التلاميذ، وقال نزهوا أسماعكم عن استماع الخنا كما تنزهون

ألسنتكم عن النطق به. فإن المستمع شريك القائل: إن السفيه ينظر إلى أخبث شيء في وعائه ويحرص أن يفرغه في أوعيتكم. ولو ردت كلمة السفيه لسعد رادها كما شقي منها قائلها.

سأله رجل عن أهل العراق ما يقول في ابي حنيفة؟ قال: سيدهم.. قال في أبي يوسف؟ قال أتبعهم للحديث: قال. في محمد؟ قال: أكثرهم تفريغا. قال فزفر؟ قال: أحدهم قياسا..

ولا إبذاء في الحلقة ولا إفحاش: قال المزني أمامه يوما: فلان كذاب. قال: اكس ألفاظك أحسنها. لا تقل كذاب. قل: حديثه ليس بشيء. فإذا ضعف الشافعي مرسل أبي العالية الرياحي أن (على الضاحك الوضوء) قال "حديث أبي العالية الرياحي.. رياح" وإذا ضعف حرام بن عثمان أن قال "حديث حرام كاسمه حرام" وهو في كتبه، كما هو في حلقته، يجادل الآراء لا أصحاب الآراء. ويكلف تلاميذه أن يأخذوا إخذه.. قال الربيع في في ختام أحد الأبواب في الأم (فقلت للشافعي: فلست أريد مسألتك ما كرهت من ذكر أحد. ولكني أسألك في أمر أحب أن توضح لي فيه الحجة. قال: فسل) ومن ذلك قوله الذي يتردد في كتبه: خالفنا بعض الناس؛ وغيره من أساليب إغفال الأسماء.

***

وللدرس أولويات، فالقرآن أول العلوم يستفتح به نهاره، ثم يجئ الحديث في الدرس الثاني. فهذان الدرسان أحق بالمباكرة واستجماع الفكر، تليها المناقشة المفتوحة للناس جميعا في القرآن والسنة. وأخيرا تجئ علوم العربية من لغة وشعر وعروض ونحو. والأستاذ يسقي الناس من بحره الواسع – وبهذا تكاملت بجامع عمرو دورة تدريس المنهج الكامل في يوم واحد في حين تتكامل في سنين بالنسبة للأستاذ الجامعي في العصور الحديثة، وتتكامل على يد كثيرين من الأساتذة بالنسبة للتلاميذ.

وفي تقيم عناصر المنهج يقول الإمام "من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن نظر في الفقه نبل قدره، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن نظر في اللغة رق طبعه، ومن نظر في الحساب جزل رأيه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه".

والمجالس تخرج وتدرب. ولقاءات الرجال تلقيح لألبابها، كما يقول عمر بن عبد العزيز، ولهذا كان الحوار طريقته المثلى، طريقا ذات اتجاهين – يستفيد فيها المناظر علم صاحبه مثلما يفيده.

يدعو الشافعي من يتدارس معه اللغة والأدب، فيقول للربيع: ادع لي "سرجا". فيأتي الربيع "بسرج الغول" عالم اللغة، وكان الشعراء يعرضون شعرهم عليه ليتيقنوا صحته. ويجلس الشافعي وسرج يتعاودان الحديث، والمجلس غاص بالناس، ليروي الشافعي ظمأه إلى الفصاحة مع رجل يستطيع أن يرقى إلى مستوى المناظرة معه. حتى إذا قضى معه وقتا عاد إلى الربيع يقول: يا ربيع نحتاج أن نستأنف العلم.. وإنما يقصد التعليم أو الإملاء في الفقه، أو في الحديث أو في التفسير.

وللتلاميذ وللفقه من وقته مقام الصدارة: ذاكره طبيب مصري حيال المسجد في الطب فبهر لبه حتى ظن أنه لا يحسن غيره وسأله: هل قرأت كتب "أبقراط:. فأشار إلى الجامع وقال: إن هؤلاء لا يتركونني..

كان قول "لا تسكنن بلدا لي فيه عالم يفتيك عن أمر دينك ولا طبيب ينبئك عن أمر بدنك" ويقول "إنما العلم علمان علم الدين وعلم الدنيا. فالعلم الذي للدين هو الفقه. والعلم الذي للدنيا هو الطب".

فإذا خلا في بيته هدر كالمسيل في أيام العرب..

هكذا تبحر في علوم الدنيا وتخصص في علوم الدين.

ولقد كان عبد الملك بن هشام بمصر، مبايعا بأنه عالم مصر والعرب بالغريب والشعر والسيرة النبوية. قيل له لو أتيت الشافعي؟ فأبى حينا. ثم قيل له لو أتيته؟ فأتاه، فذاكره أنساب الرجال. فقال الشافعي بعد أن تذاكرا طويلا: دع عنك أنساب الرجال. فإنها لا تذهب عنا ولا عنك.. وخذ بنا في أنساء النساء.. فلما أخذ فيها اشرأبت الأجياد إلى الإمام. فكان ابن هشام بعد يقول: "ما ظننت أن الله عز وجل خلق مثل هذا".

وكثيرا ما يتناشدان الشعر.. ثم صار ابن هشام إذا شك في شيء من اللغة بعث إليه فسأله. وكان من رواد الحلقة الحسن بن عبد السلام الشاعر.

كان الجامع العتيق مركز الثقافة، والغة وآدابها طلبة العرب المقيمين، والمصريين الذين شرعوا يسلمون أفواجا في هذه الفترة وما تلاها من الزمن. سبق أبو نواس الشافعي بأعوام إلى مصر، يقرض الشعر ويمليه أو يرويه بالمسجد الجامع. ولحقه بعد أعوام أبو تمام، يجمع الأراجيز والقصائد ويقرض الشعر ويسقي الماء خمس سنين في المسجد الجامع، ثم يستدعى إلى بغداد ليكون شاعر "المعتصم" ويصير أستاذا للبحتري ويخلف للفصحى ديوانه، لتوجد أشعاره في رحل المتنبي عند وفاته (٣٥٤). وسيفد البحتري إلى مصر بعد خمسين عاما أو ستين، أو تفد إليها آماله وأشعاره في انتظار الإنعام عليه. ثم يفد عليها المتنبي بعد سنين لينظم في أماديحه المبدعة، وأهاجيه المقذعة، في حاكم يلتمس أعاطيه.. واتصال مصر بهؤلاء الثلاثة اتصال بشوامخ الشعر العربي، تتأثر بها وتؤثر فيها.

***

كان عمر بن عبد العزيز عند الشافعي، هو الخليفة الخامس (من الراشدين). تربى بحلوان على مبعدة فراسخ من المجلس النبيه في جامع عمرو. فكان الشافعي يعيش معه بفكره كلما سرح طرفه فرآها.

ويشفه الوجه إلى الأرض المقدسة إذ يحج من مصر، فيبث خلجات صدره في نفثات شعره. فما كان يصعد شرفا ولا يهبط واديا إلا وينشد:

يا راكبا قف بالمحصب من منى واهتف بقاعد خيفها والناهض
سحرا إذا فاض الحجيج إلى منى فيضا بملتطم الفرات الفائض
إن كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي

ويتملكه الشوق إلى العراق، فيقول مقال مشتاق، لتلميذه يونس: هل رأيت العراق؟ فيقول لا. فيقول ما رأيت الدنيا. ويهزه الحنان إلى قرة العين هناك: فيقول: وعدني أحمد بن حنبل أن يقدم إلى مصر.

وظاهر أن قلة ذات اليد حالت بين أحمد وبين الوفاء بالعدة.

وأحيانا يأخذ في أطراف شتى من الكلام، ولمع من السير تندى الأكباد، وتقر الأعين. من كل قطر طرفة.

يقول عن عجائب المدينة: رأيت بالمدينة أربع عجائب: جدة لها إحدى وعشرون سنة! ورأيت رجلا فلسه القاضي في مدين نوى (مكيالا نوى – أربعة أرطال)! ورأيت شيخا قد أتى عليه

obeikandl.com

تسعون سنة يدور نهاره حافيا راجلا على القيان يعملهن الغناء، فإذا جاءت الصلاة صلى قاعدا! وكان بالمدينة وال، وكان رجلا صالحا، فقال: مالي لا أرى الناس يجتمعون على بابي كما يجتمعون على أبواب الولاة؟ قالوا: إنك لا تضرب أحدا ولا تؤذي الناس. فقال أهكذا؟ علي بالإمام ينصب بين العقابين، وجعل يضرب، والإمام يقول: أعز الله الأمي (أيش جرى – أي شيء جرى) وهو يقول: حملنا بنفسك. فاجتمع الناس ببابه.

ويروي: كنا في سفر بأرض اليمن فوضعنا سفرتنا [٥٩] لنتعشى، وحضرت صلاة المغرب فقلنا نصلي ثم نتعشى. فتركنا سفرتنا كما هي، وكان في السفرة دجاجتان، فجاء ثعلب فأخذ إحدى الدجاجتين، فلما قضينا صلاتنا أسفنا عليها وقلنا حرمنا طعامنا. فبينا نحن كذلك إذ جاء الثعلب وفي فمه شيء كأنه الدجاجة فوضعه، فبادرنا إليه لنأخذه ونحن تحسبه الدجاجة قد ردها. فلما قمنا لخلاصها فإذا هو قد جاء إلى الأخرى فأخذها من السفرة.. وأخذنا الذي قمنا إليه لنأخذه.. ليفة قد هيأها مثل الدجاجة.

وتتراءى سماحة الفكر والنفس والمنحى العلمي جميعا في سخريته ومن المتزمتين فيقول: حضرت بمصر رجلا مزكيا يجرح رجلا، فسئل عن سببه وألح عليه فقال: رأيته يبول قائما. قيل وما في ذلك؟ قال يرد الريح من رشاشه على يديه وثيابه فيصلي فيه. قيل: هل رأيته أصابه رشاش وصلى قبل أن يغسل ثيابه؟ قال لا ولكن أراه سيفعل!

---

(٥٩)

openkandil.com

ويحدث عن محمد بن علي بن شافع [٦٠] أنه قال: "إني لحاضر مجلس أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور وفيه ابن أبي ذئب والحسن بن زيد والي المدينة. فأتى الغفاريون [٦١] فشكوا إليه شيئا من أمر الحسن. فقال يا أمير المؤمنين سل فيهم ابن أبي ذئب. فسأله فقال: أشهد أنهم أهل تحكم في أعراض المسلمين كثير والأذى لهم.. فقالوا: سله عن الحسن. فقال.. أشهد أنه يحكم بغير الحق ويتبع هواه.. قال محمد: فجمعت ثيابي والسياف قائم على رأس أبي جعفر مخافة أن يأمر به فيقتل فيصيب دمه ثوبي. فقال أبو جعفر: قد سمعت يا حسن؟ فقال: سله عن نفسك.

فقال أبو جعفر: فما تقول في؟ قال أو يعفيني أمير المؤمنين فقال والله لتخبرني..

فقال: أشهد أنك أخذت المال من غير حقه وجعلته في غير أهله. فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده في قفاه. قال محمد فجمعت ثيابي مخافة.. فيصيب دمه ثوبي. قال أبو جعفر: والله لولا أنا لأخذت أبناء فارس والروم والترك والديلم، هذا المكان منك. فخلى قفاه وأطلق سبيله. وقال: والله لولا أني أعلم أنك صادق لقتلتك. قال ابن أبي ذئب: أنا والله أنصح لك من المهدي (ابنه).

ويتحدث عن ابن عباس وعمرو بن العاص فيروي كيف دخل على عمرو وهو ابن بضع وثمانين.. قال عمرو أصبحت وقد ضيعت من ديني كثيرا وأصلحت من دنياي قليلا. فلو كان

---

(٦٠)

(٦١)

obeikandi.com

الذي أصلحت هو الذي أفسدت والذي أفسدت هو الذي أصلحت لقد فزت.. فعظني بعظة أنتفع بها يا ابن عباس؟ قال: هيهات... قال.. ابن بضع وثمانين وتقنطني من رحمة الله!! ثم رفع يديه وقال: اللهم إن ابن عباس يقنطني من رحمتك فخذ مني حتى ترضى. قال ابن عباس: هيهات يا أبا عبد الله تأخذ جديدا وتعطي خلقا. قال: من لي منك يا ابني عباس. ما أرسل كلمة إلا أرسلت نقيضها.

ويقول ويملي عن عمر كذلك: قدم ابن عمامة على عمرو فألقاه صائما وقد أحضر إخوانه طعاما وصلى صلاة فأتقنها. ثم أتى بمال فأمر بتفريقه. قال ابن عمامة: يا أبا عبد الله.. وأتاك مال أنت أحق به من غيرك ففرقته. بم ذاك يا أبا عبد الله؟ قال: ويحك يا ابن عمامة. فلو كانت الدنيا مع الدين أخذناها وإياه. ولو كانت تنحاز عن الباطل أخذناها وتركناه. فلما رأينا ذلك كذلك، خلطنا عملا صالحا وآخر سيئا عسى أن يرحمنا الله.

***

وينتهي الشافعي من الصلاة فتلقى إليه طنفسة فيجلس عليها إلى جوار إحدى الأساطين وينحني لوجهه ثم يأخذ في الكتابة. وفي بعض الأوقات يملي وابن هرم يكتب له، والبويطي يقرأ والحاضرون يسمعون ثم ينسخون بعد، وإذا غاب الربيع عن الدرس ثم حضر قرأ عليه ما فاته. وكان الأستاذ حسن الدخلة حسن الصلاة بتلاميذه يستنهض هممهم ويدفع السأم عنهم، ويحضهم على التخريج، كمثل ما كان يصنع أبو حنيفة.. وربما ألقى المسألة على الحميدي وعلى ابنه أبي عثمان محمد. وقال: أيكما أصاب فله دينار.

فإذا أوى إلى داره لم ينم من الليل إلا ثلثه أو نقص منه قليلا، كالطير يحسو الماء حسوات، ثم يستأنف تحليقه – قسم الليل ثلاث أثلاث. ثلثا يكتب فيه. وثلثا ينام فيه. وثلثا يصلي فيه.

وكانت له جارية سوداء يوقظها كلما عن له أن يدون بابا في العلم.

ودام ذلك سنة حتى ليقول له الربيع: إنها منك في جهد..

ترى كم أجهد نفسه إذا كان أجهدها بذلك وحده.!

قالت الجارية: ربما قدمنا – في ليلة واحدة ثلاثين مرة، أو أكثر أو أقل – المصباح بين يدي الشافعي. وكان يستلقي ويتذكر ثم ينادي: يا جارية هلمي مصباحا. فتقدمه ويكتب ما يكتب. ثم يقول ارفعيه..

كان ساكنا في العلو والحميدي في الأوساط. فربما خرج الحميدي في بعض الليل فرأى المصباح فصاح بالغلام، فسمع الأستاذ صوته فدعاه ليرقى فيرقى. فإذا بقرطاس ودواة فيقول: مه يا أبا عبد الله، فيقول: تفكرت في معنى حديث أو مسألة فخفت أن يذهب علي فأمرت بالمصباح وكتبته.

لقد كان الشافعي أعظم مثل لتلقي العلم وإلقائه، وعبادة الله به، فليس لتفانيه في تحصيله حدود جغرافية أو زمانية. يسعى إليه في البلاد سعيه، ويقوم الليل النهار له. قال أبو يوسف (العلم شيء لا يؤتيك بعضه إلا أن تؤتيه كلك) وسيقول جون دالتون بعد ثلاثة عشر قرنا (إذا كنت نجحت أكثر من غيري فبسبب خاص بي – سبب واحد – هو المثابرة) أو كما يعبر توماس أديسون (في العبقرية إلهام بقدر واحد في المائة. أما التسعة والتسعون الباقية – فهي في

المثابرة). وظاهر أن الواحد هو الذي يعطي سائر المائة "مزايا العبقرية" ولكل فضل. والله لا يضيع عمل عامل.

أقام الشافعي بمصر نحوا من خمس سنين حتى آخر رجب سنة ٢٠٤ أملى فيها أكثر فقهه.

كل أولئك، وقد كان مسقاما شديد العلة بالبواسي، حتى إن صدره أصبح ضيقا. وكان يقول: إني لآتي الخطأ وأنا أعرفه، يعني ترك الحمية، فلا ينزل عند نصح الطبيب له بالانقطاع عن سبب الداء. وهو الجلوس الطويل والحركة المجهدة. لأنه يعرف أن أيامه معدودات، وأن رسالته في حاجة إلى الإتمام.. لكأنما كان يسابق ختام أيامه.

***

هو في مصر كما كان في كل مكان، لا يحب الجدل في وجود الله وصفاته، ومرد ذلك إلى ما يرويه عنه الربيع: "رأيت أهل الكلام يكفر بعضهم بعضا، ورأيت أهل الحديث يخطئ بعضهم بعضا، والتخطئة أهون من الكفر" وفي عبارة أخرى له:

"إياكم والنظر في الكلام: فإن الرجل لو سئل عن مسألة في الفقه أخطأ فيها، كما لو سئل عن رجل قتل رجلا فقال ديته بيضة – كان أكثر شيء أن يضحك منه. ولو سئل عن مسألة في الكلام فأخطأ فيها نسب إلى البدعة".

بل يروي الربيع عنه: لو أن رجلا أوصى بكتبه من العلم وفيها كتب الكلام – لم تدخل كتب الكلام في هذه الوصية.

لقد كان يوجس خيفة من فتح أبواب أثبتت الأيام حكمته في إغلاقها. بالنهي عن المحاورات التجريدية التي أجراها المتكلمون والمعتزلة، ليكرهوا المفكرين على طريقتهم، فأساءوا إلى أنفسهم وألبوا جمهور المسلمين عليهم.

كان التلاميذ يتناظرون في الكلام فسمع ما كانوا فيه، فرجع عنهم وما خرج إليهم إلا بعد سبعة أيام، قال: ما معنى من الخروج إليكم إلا أنني سمعتكم تتناظرون في الكلام. أتظنون أني لا أحسنه؟ لقد وصلت فيه حتى بلغت مبلغا عظيما، إلا أن الكلام لا غاية له. تناظروا في شيء إن أخطأتم فيه يقال أخطأتم ولا يقال كفرتم.

جاءه بالجامع العتيق رجل من بلخ فسأله: ما الإيمان؟

قال الشافعي: فما تقول أنت فيه؟

قال الرجل: الإيمان قول.

قال الشافعي: ومن أين قتل؟

قال: من قول الله تعالى: "إن الذين آمنوا وعلموا الصالحات" فصارت الواو فصلا بين الإيمان والعمل..

قال الشافعي: وعند الواو فصل؟

قال: نعم.

قال الشافعي: فإذن كنت تعبد إلهين إلها في المشرق وإلها في المغرب لأن الله تعالى يقول "رب المشرقين ورب المغربين".

obeikandl.com

قال: سبحان الله، أجعلتني وثنيا.

قال الشافعي: بل أنت جعلت نفسك كذلك بزعمك أن الواو فصل..

وود الرجل من خزيه لو تسوى به الأرض، واستغفر. فصار يقول قول الشافعي إن الإيمان قول وعمل، وأنفق على باب الشافعي مالا عظيما، وجمع كتب الشافعي وخرج من مصر إلى دياره يقول: إن الإيمان قول وعمل.

وروى شاهد عيان أن حفصا الفرد – وكان من أكابر المجبرة بمصر (القائلين بالجبر) ثم انتقل إلى البصرة يناظر أبا هذيل العلاف – حضر مجلس الشافعي وفيه عبد الله بن عبد الحكم، وآخر، فقال حفص لعبد الله ما تقول في القرآن؟ قال: كلام الله. وسأل الآخر فقال مثله – فأومأ إليه الناس أن يسأل الشافعي.

قال حفص: يا أبا عبد الله يحيلون عليك.. ما تقول في القرآن.؟

قال الشافعي: أقول القرآن كلام الله غير مخلوق.

وتناظرا حتى عصب ريق حفص، وانصرف منكسر النفس، فلما لقي الشاهد في الغداة قال – منكسف البال – رأيت ما فعي بي الشافعي أمس؟ كفرني.. ثم مضى ثم رجع فقال: أما إنه مع هذا ما أعلم إنسانا أعلم منه. ذلك تطبيق لقول محمد بن عبد الله ابن عبد الحكم: كنت إذا رأيت من يناظر الشافعي رحمته. لو رأيت الشافعي في المناظرة لقلت: أسد يريد أن يفترسني!

***

والشافعي يأمر بالاجتهاد ويحض عليه. بل هو حرب على المتبعين والمقلدين الذين لا يفكرون.. أليس الكفار هم الذين يقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون؟.

وتقرأ له في أكثر موضع الاستشهاد بحديث الرسول "إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد ثم أخطأ فله أجر".

ويقول في خلاف الآراء وتقليدها آراءه المأثورة. "وإذا قاس من له القياس فاختلفوا، وسع كلا أن يقول بمبلغ اجتهاده، ولم يسعه اتباع غيره فيما أدى إليه اجتهاده بخلافه".

وأصبح نهيه عن التقاليد معلما من معالم مذهبه، فيفتتح تلميذه المزني مختصره المشهور بقوله للناس: (اختصرت هذا الكتاب من علم محمد بن إدريس الشافعي ومن معنى قوله رحمه الله، فأقربه علي من أراده. مع إعلاميه نهيه عن تقليده وتقليد غيره).

هكذا فتح الشافعي باب الاجتهاد على مصراعيه. وبدأت الكتابة الفقهية المنهجية على نطاق واسع في مصر، بقلم أبلغ العرب في عصره وفيما بعد عصره. وبدأت مرحلة تدوين مذهب فقهي جديد متكامل أضاف إلى المذهب المالكي والمذهب الحنفي أسباب بقاء ونماء.. بل ليصير هو جديدا بالنسبة لنفسه، بعد إذ أطل صاحبه على حضارة جديدة غير حضارة الجزيرة العربية.

ورأت مصر طريقة جديدة في الجدل. فهو يستعرض الرأي ونقيضه لتتم له الحجة أو إدحاضها بالدليل ونقيضه، وبأكثر من وجه. فيقول لمجادله: تقلد أنت قولي وأتقد قولك، ثم يناظره فيقطعه. فإذا كان يكتب أو يملي – افترض وجود الخصم ينافح عن رأي عكسي فيناظره..

وفي الاجتهاد عبادة وقربى. والخطأ ليس منقصة. والرجوع إلى الحق صدق.. وهو لا يرجع عن الخطأ فحسب، ولكنه يحل الآخرين عن خطئه، بل ينبه بقوة على احتمال وجود الخطأ

في جهده الإنساني؛ ويدعو الناس إلى التوقي منه. يقول: "لقد ألفت هذه الكتب ولم آل فيها، ولابد أن يوجد فيها الخطأ لأن الله تعالى قال: "ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا" فما وجدتم في كتبي هذه مما يخالف الكتاب والسنة فقد رجعت عنه".

ويربد وجهه ويرتعد لينبه على منزلة الاجتهاد من السنة.

سئل عن مسألة فقال: يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال كذا.. قال رجل: يا أبا عبد الله. أتقول بهذا؟ فارتعد الشافعي واصفر لونه، وحال وتغير، وقال: ويحك.. أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني، إذا رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أقل به. نعم: على الرأس والعين.

***

كانت حياته في مصر ختام رحلات هذا العالم العلمي الطريقة، الذي لا يتوقف إلا لينطلق لنشر فقهه. يفني نفسه في كل أبواب الدين والعلم واللغة والتجربة والتطبيقات والاختيارات.

فلا عجب أن يغير بعض آرائه في بعض الفروع إذ يجئ إلى مصر.

كان الكرابيسي والزعفراني، قد دونا كتبه ببغداد حيث صنف كتابه الحجة. وفيه علمه الذي أنضجته السنون وحلق الدرس في مكة وبغداد، كما دون تلاميذه في مصر كتبه التي تلقوها بمصر، وقد آل إلينا أكثرها في "الأم" بروايات الربيع. وبهذا وجد في فقه الشافعي قديم وجديد، أو عراقي ومصري.

ويروي ابن النديم إذا أتم كتاب الفهرست عام ٣٧٧: أن الزعفراني روى المبسوط عن الشافعي على ما رواه الربيع وفيه خلف يسير. وليس يرغب الناس فيه. ولا يعملون عليه. وإنما يعمل الفقهاء على ما رواه الربيع. وأنه لا حاجة لتسمية الكتب التي رواها الزعفراني لأنها قلت. ودرس أكثرها، وليس ينسخ منها بعد.

وهكذا أصبحت كتب الشافعي هي الكتب المصرية وحدها منذ القرن الرابع.. وربما دل ذلك على أن ما تضمنه الحجة أو المبسوط تضمنته الأم. وربما دل على أن الكتب المصرية وحدها كانت هي المعتمدة منذ النصف الأول للقرن الثالث، قول أحمد ابن حنبل (١٦٤ – ٢٤١) لمحمد بن وارة إذ قدم إلى بغداد من مصر: هل كتبت كتب الشافعي؟ قال لا: قال ابن حنبل: فرطت. فرجع إلى مصر فنسخ الكتب.. ولقد رووا أن ابن حنبل قال (عليك بالكتب التي وضعها بمصر. فإنه وضع هذه الكتب بالعراق ولم يحكمها، ثم رجع إلى مصر فأحكم تلك).

ذهب الشافعي مذهبا جديدا في أمور بعد إذ سمع آراء الفقهاء المصريين وما صح عندهم من أحاديث، وسمع تلاميذ الليث بن سعد بمصر، وبصر بحالات اجتماعية وحضارية جديدة، فنراه يضرب الأمثال بصدقة دار بالفسطاط، ويتكلم عن الكورة وهي مصرية، وعن طين رآه يزعم أهل العلم أنه أرمني. وطين يقال له طين البحيرة والمختوم يدخلان في الأدوية، ويتكلم عن القراطيس وهي مصرية، وغير ذلك مما ورد في كتبه.

ولا يمنع تعدد أقواله أن يختار منها ما يعضده حديث، فالشافعي هو القائل "إذا صح الحديث فهو مذهبي". فإذا لم يوجد معضد جاز اعتبار الأحدث ناسخا لما سبقه. ويروى البعض في هذا الصدد قوله "لا أجعل في حل من روى عني كتابي البغدادي". ومن لا يقبل النسخ يقول

إن للإمام قولين. وقد نص الشافعي في مواضع من كتبه على قولين نبه على اختيار الذي يختاره بقوله هذا أصحهما.

ولا على العالم أن يكون له في المسألة قولان مبرران، أو أن يعدل عن رأي إلى آخر قال: عمر لقاضيه (لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه عقلك وهديت لرشدك أن ترجع إلى الحق، فالرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل).

***

وظاهر أن الكتب القديمة لم تنقل كلها معه إذ قدم إلى مصر، فأصبح يروي الأحاديث من حفظه فتبدو منقطعة، في حين سمعها هو متصلة أو مشهورة برواتها. ولكن عدم تثبته من أسماء الرواة جعله يرويها من دونهم حفاظا منه على الصيغة الموضوعية للنص، واكتفاء به. يقول في كتاب اختلاف الحديث:.... "والأصل يوم كتب هذا الكتاب غائب عني". ويقول في كتاب الرسالة "وكل حديث كتبته منقطعا فقد سمعته متصلا أو مشهورا عمن روي عنه بنقل عامة من أهل العلم يعرفونه عن عامة. ولكني كرهت وضع حديث لم أتقنه حفظا، وغاب عني بعض كتبي وتحققت بما يعرفه أهل العلم مما حفظت، فاختصرت خوف طول الكتاب، فأتيت ببعض ما فيه الكفاية دون تقصي العلم في كل أمره".

لم تكن رسالة الشافعي تحمل اسم الرسالة، فالشافعي يسميها "الكتاب" ويشير إليها على أنها "كتابي" أو كتابنا: "ولكن معاصريه سموها "الرسالة" فبقيت لها تسميتها – وهي بها جديرة. فأبوابها جميعا أصول دفاعه عن السنة وحديث الواحد وشروط صحة الحديث والخبر المرسل وهي أدق ما كتب في أصول الفقه. وكل ما كتب بعدها عالة عليها. فهي بالمعنى العلمي

العصري "رسالة"، وردت على غير مثال سبق. ولقد تعتبر هذه الرسالة على صغر حجمها، أصغر كتاب، يحدث أكبر أثر، في أقصر زمن، في أعظم علم من علوم الإسلام.

فلا أعجب أن يقول ابن مهدي عندما قرأها: (لما نظرت الرسالة للشافعي أذهلتني لأنني رأيت كلام رجل عاقل فصيح ناصح.. فأني لأكثر الدعاء له).

قال ابن سعيد الأنماطي (٢٨٨): أنا أنظر في كتاب الرسالة منذ خمسين سنة ما أعرف أني نظرت فيه مرة إلا وأنا أستفيد منه شيئا جديدا.. ويقول المزني تلميذ الشافعي: قرأت كتاب الرسالة للشافعي خمسمائة مرة، وما من مرة منها إلا استفدت فائدة جديدة لم أستفدها في الأخرى.

انتشرت الرسالة بمجرد إرسالها إلى عبد الرحمن بن مهدي، عن طريقه، لكن النسخة التي بين أيدينا الآن هي نسخة الربيع المرادي، عن الشافعي وهو بمصر. وهكذا كتبت بمكة، وأذيعت في بغداد، وأعيدت كتابتها بمصر، لتؤول إلى كل العصور.

بلغ إنتاج الشافعي أعظم قدر من الضخامة. قيل إنه ألف ١١٣ كتابا. في التفسير والفقه والأدب وغير ذلك وقيل ١٤٢ كتابا. وفي معجم ياقوت والفهرست لابن النديم ثبت مؤلفاته.. و"الأم" برواية الربيع بين أيدينا. وهو يقع وحده في مجلدات سبعة ضخمة. كأنها أعمال فرقة كاملة من الأئمة!

ويزيد عمله جلالا أن يؤلفها في مدة قصيرة، من حياة قصيرة، بالنسبة لحياة الأئمة الثلاثة الآخرين. ويزيدها قصرا طول ما قضاه منها طلبا للعلم في شبابه بمكة وهذيل والمدينة، وعملا في اليمن، وأسفارا مضنية فوق أديم الصحراء في آسيا وأفريقية.

***

obeikandl.com

رأى من الناس من يتبركون بقلنسوة مالك فيستسقون بها المطر. ومن يقال له قال الرسول.. ويقول قال مالك.

فوضع كتابه "خلاف مالك" في هذه الفترة.. ليعلن الناس بلسان تلميذ وفيّ أن أستاذه بشر يصيب ويخطئ، وأخفى الكتاب عن الناس حتى حال الحلول عليه، وهو يستخير الله في دفعه إلى الملأ، مخافة أن يكون قد خرج على الواجب، حو "الأستاذ". وخار الله له فخرج "خلاف مالك" للناس [٦٢].

---

(٦٢) كتاب خلاف مالك مطبوع في "الأم".

يحتوي كتاب الأم أكبر مجموعة من فقهه، برواية متعددة الطرائق عن الربيع فهو يقول أحيانا: (كتبت هذا الكتاب من نسخة الشافعي من خطه بيده ولم نسمعه منه) وأحيانا يقول (أملى علينا الشافعي) وأحيانا نجد التاريخ (أخبرنا الربيع بن سليمان المرادي بمصر سنة سبع ومائتين وقال أخبرنا محمد بن إدريس الشافعي قال..) وأحيانا يروي أسئلة وإجابات وأحيانا يروي رواية عادية.

والنسخة المطبوعة بين الجمهور طبعت على نفقة المرحوم الأستاذ أحمد بك الحسيني المحامي، وكان رابع أربعة من تلامذة الأزهر هم المحامون الأولون بمصر هم: سعد زغلول زعيم ثورة سنة ١٩١٩ بمصر. إبراهيم الهلباوي أول نقيب للمحاماة بمصر. وإبراهيم اللقاني. والثلاثة مع الإمام محمد عبده أظهر تلاميذ جمال الدين الأفغاني. أما المحامي الرابع فهو أحمد الحسيني الذي تفرغ بعد أن ترك المحاماة لطبع (كتاب الأم) وقد نبه في صدره على أنه قد حصلت له عدة نسخ من الأم، منها بعض أجزاء عتيقة بخط الإمام سراج الدين البلقيني تفردت بزيادات مفردة لبعض مؤلفات الشافعي مثل اختلاف الحديث واختلاف مالك والشافعي وأنه رأى – لما لهذه الزيادات من فوائد – أن يثبتها في الهامش أو في الصلب. فالكتاب لهذا أشبه بالموسوعة في أبواب فقه الشافعي مثل الصلاة والزكاة والصيام والحج والبيع والفرض والرهن والتفليس والضمان والغصب

obeikandl.com

والشفعة والإجارة، والحجر والصلح والشركة والوكالة والمواريث والوصايا وقتال أهل البغي وأهل الردة، والسبق والنضال، والزواج والطلاق والخلع والجنايات والديات والحدود والقصاص، واليمين والشاهد – وفيه كتاب اختلاف مالك والشافعي وكتاب الرد على محمد بن الحسن – وكتاب جماع العلم، وإبطال الاستحسان واختلاف علي وعبد الله بن مسعود، وما اختلف فيه أبو حنيفة وابن أبي ليلى عن أبي يوسف. وخلاف ابن عباس وسير الأوزاعي وبهامش الأجزاء الخمسة الأولى مختصر المزني. أما الجزءان الأخيران فعلى هامشيهما مسند الإمام الشافعي واختلاف الحديث للشافعي.

وكتاب خلاف مالك في جملته مناظرة لأصحاب مالك فيما قيل من اشتراط عمل الأئمة لتأييد الحديث وانتصار من الشافعي لحديث الآحاد، وأن الحديث الثابت عن الرسول مستغن بنفسه لا يحتاج لموافقة. وأنه أولى أن يؤخذ به لو روي عن يغره ما يخالفه.

وكتاب الرد على محمد بن الحسن دفاع عن الشافعي عن أهل المدينة. إذ يقول محمد قال أهل المدينة عما يريد أن يقول فيه قال مالك، وكثير من أهل المدينة يخالفون مالكا فيه.

وكتاب خلاف علي وابن مسعود مقصود به خلاف أبي حنيفة وأصحابه لإمامي العراق علي وابن مسعود. وكتاب سير الأوزاعي دفاع عن الأوزاعي ضد أبي يوسف. وكتاب إبطال الاستحسان رد لأصحاب أبي حنيفة إلى قواعد القياس. وكتاب جماع العلم انتصار للسنة، وكتاب اختلاف الحديث دفاع عن السنن عموما وخبر الواحد خصوصا.

فالشافعي يصوب الحنفية والمالكية، وينصف عليا وابن مسعود والأوزاعي وأهل المدينة، لينصر السنة وينبه على القاعدة. ولا عليه إن عارض أستاذيه مالكا أو محمدا أو سواهما.

وقد صدر الجزء الأول من أجزاء الأم السبعة "بالرسالة" فشغلت ثمانين صفحة واثنتين، باعتبارها أصول الفقه. وكثيرا ما تتردد عباراتها في أبواب من الكتاب.

يقف القلم مديدة أمام الشافعي الطويل في نشر كتابه هذا، بعد إذ أدى بكتابته واجبه في الدين والعلم. فإحجامه عن النشر، وقد زايل مالك عالم الأحياء من نحو ربع قرن، درجة وفاء تتكافأ وفريضة بيان العلم، عاما كاملا، حتى فتح الله عليه فيغلب حق العلم على العلماء!. وقد أخذ الله عليهم موثقا لبيانه.

والشافعي هو الذي يقول في الرسالة عن أستاذه الأعلى عبد الله بن عباس (فابن عباس أفضل من أن يتوقى أن يقول له أحد حقا رآه).

لكنها مهابة مالك في رمسه، وذكريات "إمام دار الهجرة" التي أعزته في حاضره وأمسه، وفروسية الفارس الذي كانه.

كان الشافعي أقرب للمحدثين وهم إليه أميل. فاقه بعضهم في معرفة الحديث وأسانيده ورجاله. وفاقهم بفقهه في الحديث والاستدلال به. ولذلك كان من أنصاره عبد الرحمن بن مهدي وأحمد بن حنبل وإسحق بن راهويه وسفيان بن عيينة. وهؤلاء من كبار المحدثين في كل

تصدى صديقنا المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر رئيس المحكمة الشرعية لكتاب "الرسالة" فجلاه في نحو سبعمائة صفحة تقربه إلى أسلوب القارئ العصري وذيله بفوائد علمية فبدا في مظهر مونق، وختمه بدراسة لبعض ألفاظ الرسالة ونحوها، اعتمدنا عليه في كثير مما أشرنا إليه في الهامش بالفصل الثاني من الباب الثاني.

ولعل من أهل العلم من يحذو حذوه في بعض كتب الأم؛ بل لعل جهة مختصة تتولاها كلها بإخراج عصري وتجلية، فليس أجدى من هذا الصنيع على الفقه الإسلامي والعالمي.

obeikandl.com

الأعصر.. كما كان أقرب إلى نفوس الحنفية من المحدثين، لأنه لم ينكر القياس والاجتهاد بل أوجبهما، وقعد القواعد لهما، بما لم يبلغ شأوه أحد. حتى عدل البعض عن مذهبهم إلى مذهبه.

فالتقريب بين المذهبين أو جمعهما، وانتخابه ما رأى الحق في كليهما، هو أوضح ظاهرة في مدرسته.

***

لقد ظفرت مصر بفرصة التاريخ. بالإمام القرشي الذي اجتمع فيه الأئمة الأربعة لأهل السنة. وتكونت فيه خلية النحل التي ستنطلق للعمل في كل بلدان الإسلام، وفيها، فتجعلها كمثل عاصمة الخلافة.، ولكن أهدأ وأهنأ. وكمثل مكة والمدينة، ولكن أقوى هجوما ومدافعة: وأشرقت فيها شمس العلم لتظل في السماء، عن طريق مصر الفسطاط – مصر القاهرة.

التلاميذ:

١ – الربيع المرادي (٢٧٠)، لزم الإمام يقضي مصالحه ويتعلم عليه فهو أطول أصحابه صحبة وأكثرهم رؤية، قال الشافعي: (الربيع راويتي) وهو أول من أملى الحديث في جامع ابن طولون في مدينة القطائع، التي أنشأها أحمد بن طولون إلى جوار الفسطاط، فلما مات صلى عليه أمير مصر خمارويه بن أحمد بن طولون.

وذات يوم حط على باب داره سبعمائة راحلة جاء أصحابها لسماع كتب الإمام.. عاش الربيع بعد أستاذه ستة وستين عاما.. فكم من فقهاء المشرق والمغرب تعلموا على الربيع وحده!!

٢ – الربيع الجيزي (٢٥٦): كان أقل التلاميذ رواية عن الإمام.

٣ – يوسف بن يحيى البويطي (٢٣٢): كان الشافعي يصحبه في الفتيا. فلما حانت وفاته توقع محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أن يكون خليفته لمكانته في قلب الشافعي، والشافعي يقول عن محمد: وددت لو أن لي ولدا مثله وعلي ألف دينار. لكن محمدا كان في باكورة الشباب والإمام لا ينزل بأمانة العلم إلى المجاملة. فبعث الحميدي إلى الحلقة يقول: إن الشافعي يرى أنه ليس أحد أحق بالجلوس مكانه من (البويطي). فمن شاء أن يجلس فليجلس. ومن شاء أن يذهب فليذهب. فملك محمدا الغيظ فذهب إلى حلقة أبيه.

وربما كان الرجل يسأل فيقول له الشافعي: سل أبا يعقوب (يوسف البويطي)، فإذا أجاب قال هو كما قال. كان عالما لطيفا في أسبابه، يدني الغرباء ويعولهم إذا قدموا للطلب ويعرفهم فضل الشافعي وفضل كتبه، حتى كثر الطالبون لها. وكان يصرح بأنه أمر بذلك وقال له: اصبر للغرباء وميزهم من التلاميذ.. روى أنه أنشده:

أهين لهم نفسي لأكرمها ولن يكرم النفس الذي لا يهينها

روى ابن الأثرم: كنا في مجلس البويطي فقرأ علينا عن الشافعي أن التيمم ضربتان – فرويت حديث عمار بن ياسر عن النبي. (أن التيمم ضربة واحدة). فحك من كتابه ضربتين وصيره ضربة واحدة على حديث عمار وقال: قال الشافعي: إذا رأيتم عن رسول الله الثبت، فاضربوا على قولي وخذوا به فإنه قولي.

وكان موقفه لدى الامتحان جديرا بمن استحلفه الشافعي، رفض القول بخلق القرآن وآثر الموت مقيدا بأربعين رطلا من الحديد، وأغلالها في عنقه!!

٤ – المزني أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى (٢٦٤). خلف البويطي في رياسة الحلقة وألف كتبا عظيمة في فقه الشافعي، وكان كأستاذه جدلا، يغوص على المعاني الدقيقة. قال عنه الإمام. لو ناظر الشيطان لغلبه.. وقال: المزني ناصر مذهبي.

ولقد أشيع عنه القول بخلق القرآن فانفض التلاميذ من حوله حتى لم يعد يجلس إلا نحو عشرة.

٥ – يونس بن عبد الأعلى (١٧٠ – ٢٦٤): تلميذ الشافعي وابن عيينة وابن وهب. رويت عنه قراءة ورش للقرآن وكان يروي قراءة حمزة.. روى عنه مسلم.

قال فيه الشافعي: ما رأيت أحدا أعقل من يون بن عبد الأعلى.

٦ – عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (٢٥٧): أقدم مؤرخي مصر الإسلامية والأستاذ الفكري للبلاذري واليعقوبي والاصطخري والطبري – دفن إلى جوار الشافعي.

٧ – محمد بن عبد الله بن عبد الحكم (١٨٢ – ٢٦٨) تفقه بأشهب وابن وهب – واتصلت أسبابه أوثق اتصال بالشافعي ثم رجع إلى حلقة أبيه غضبان أسفا، يتعلم مذهب مالك، ومع ذلك ألف كتاب السنن على مذهب الشافعي. وقال (لولا الشافعي وأنه هو الذي علمني القياس ما علمته. وبه عرفته. فرحمه الله. فإنه كان صاحب سنة وأثر وفضل) – وامتحن محمد في بدعة خلق القرآن، وحمل إلى الواثق سنة ٢٢٧ وأهين وعذب، وحكم على بني عبد الحكم بمليون دينار. وهدمت الدار العظيمة، التي طالما تكفلت بالعلم في مصر، وعذب عبد الحكم أصغر الإخوة. ومات في السجن. حتى إذا جاء عفو الخليفة المتوكل عنهم، كانوا قد انتهوا.

فلقد طلب الخليفة الواثق كل الفقهاء في عهده (٢٢٧ – ٢٣٢) ليقولوا بخلق القرآن. وكان قاضي مصر محمد بن أبي الليث شديدا في تنفيذ أمر الخليفة، حتى كان غلامه يأخذ بقلانس العلماء!.. وأخيرا رأى هذا القاضي أن يكتب على مساجد الفسطاط: (لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق)! وتمادى فتدخل في شئون الوالي، وشكاه إلى الخليفة المتوكل، (٢٣٢ – ٢٤٨) إذ ولي الخلافة بعد الواثق، واتهمه بأنه يميل إلى أولاد الثائر عبد العزيز الجروي فعزل الوالي.

ودارت الأيام فعزل المتوكل هذا القاضي، وحبس أولاده وصادر أموالهم. وأمر بحلق لحيته ورأسه وإطافته بالفسطاط، على هذه الصورة، سنة ٢٣٧. ومكث محبوسا هو وأصحابه إلى سنة ٢٤١.

٨ – حرملة بن يحيى (٢٤٣). صار له مذهب لنفسه.

٩ – أبو بكر الحميدي (٢١٩): كان راوية سفيان بن عيينة – تلميذ للشافعي في مكة، وخرج إلى مصر لما خرج إليها، ولازمه حتى مات فلم يبق ما يشد الحميدي إلى مصر بعده، فعاد إلى مكة.

١٠ – ابن مقلاص، عبد العزيز بن عمر (٢٣٤). كان من أصحاب ابن وهب، فلما قدم الشافعي لزمه وأخذ عنه.

١١ – أبو عثمان محمد (٢٣٢): ابن الشافعي. تفقه بأبيه. ولي قضاء الجزيرة فيما بعد، وحمدت سيرته.

١٢ – أبو حنيفة الأسواني (٢٧١). وهو قحزم بن عبد الله بن قحزم. وأصله من القبط آخر من مات من التلامذة. كتب كثيرا من كتب الشافعي وروى عشرة أجزاء من السنن والأحكام.

وعلى قاعدة النظم في اللغة والفقه والعلم والرياضة والفلك. نظم الحافظ السلفي تلاميذ الشافعي في عقد نضيد قال:

فعليك يا من رام دين محمد ... بالشافعي وما تلاه وقالا

أعني محمدا ابن إدريس الذي ... فاق البرية رتبة وكمالا

وأجب كذا عن صحبه وأحبهم ... وأجلهم لله جل جلال

فأجلهم شيخ الأئمة أحمد [٦٣] ... فيما رواه من الحديث وقالا

والأعيني [٦٤] ويونس [٦٥] الصدفي والـ ... ـمزني آخر من إليه مالا

وكذاك حرملة بن يحيى والـ ... ـبويطي الذي قد أعجز الأشكالا

واذكر أبا ثور رفيق عراقه ... وفريدها والحارث النقالا [٦٦]

ثم الربيعين اللذين تفننا ... في فقهه وتحملا الأثقالا [٦٧]

والزعفراني الصدوق ورهطه ... في كل قطر واعرف الأبطالا

---

(٦٣) أحمد بن حنبل.

(٦٤) محمد بن عبد الله بن الحكم بن أعين بن ليث.

(٦٥) يونس بن عبد الأعلى بن موسى الصدفي.

(٦٦) الحارث بن سريج الذي نقل رسالة الشافعي إلى عبد الرحمن بن مهدي في بغداد. ولهذا يسمى النقال. وتسميته دليل على أن الشافعي كتب الرسالة في مكة، بعيدا عن بغداد، فلا يتصور أن يبعث بها إلى ابن مهدي على يد رسول، ينقلها إليه، وهو بجواره في المسجد ببغداد.

(٦٧) الربيع المرادي والربيع الجيزي.

وثمت تلاميذ عظام لم يجلسوا إلى الأستاذ وإنما هم تلاميذ فكريون. من أبرزهم:

داود بن علي الظاهري (٢٠٢ – ٢٧٠) وكان يجلس في حلقته أربعمائة طيلسان. وكان شديد التعصب للأستاذ وألف في مناقبه. وتمادى داود في التزام النصوص، فصار مذهبه الأخذ بظاهر النصوص، واستطرد في حجية النص بظاهر عباراته فصيرها كاملة ومطلقة. فالنص عنده حجة ما لم يدل نص على أن المقصود غير الظاهر. وكان يرى أن في عمومات الكتاب والسنة ما يفي بحاجات المسلمين.

أما الإجماع عنده فإجماع الصحابة وحده. وكأستاذه الشافعي، رفض التقليد.. وقد درس مذهبه على رأس المائة الخامسة.

محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ – ٣١٠) – هو إمام المفسرين والمؤرخين. قال قائل: لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل تفسير محمد بن جرير، لم يكن ذلك كثيرا.. ظل أربعين سنة يكتب كل يوم أربعين ورقة. وقد خرج إلى مصر سنة ٢٥٣، فأكثر الكتابة عن شيوخها. ولقي المزني. وكان الطبري قد ابتدأ في بغداد على مذهب الشافعي، وظهر في الجدل على الزعفراني.

وكتابه في التاريخ من أصدق كتب التاريخ عن العالم القديم، يتفق مع ما في تواريخ روما واليونان، مما يدل على أن كتبهم كانت في يده.

استقل الطبري بمذهب، واحتج له في كتاب: "لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام"، وهو يبيح للمرأة أن تلي القضاء في جميع الأحكام. ولم ير ذلك غيره. وكان يقول إن ابن حنبل محدث لا فقيه..

جرت يوما مسألة بينه وبين داود بن علي، فوقف الكلام على داود. فشق ذلك على أتباعه. وكلم إنسان منهم الطبري بكلمة مضة، فقام الطبري من المجلس.. أما داود فقطع كلام ذلك الإنسان سنة.

وانقطع أتباع الطبري في القرن الرابع.

وسيكون من كبار التلاميذ الفكريين أئمة آخرون مثل الغزالي، حجة الإسلام (٥٠٥) وأستاذه أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني، إمام الحرمين (٤٧٨)، ومحمد بن عمر الرازي صاحب التفسير (٦٠٦)، وأبي إسحاق الشيرازي صاحب المهذب (٤٧٦)، والقفال الكبير الشاشي (٥٠٧). والبيهقي (٤٥٨) والاسفراييني أبو حامد (٤٠٦) الاسفراييني أبي إسحق (٤١٨)، وعز الدين بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء (٦٦٠)، وتقي الدين السبكي (٧٥٦) والماوردي (٤٥٠) وتقي الدين بن دقيق العبد (٧٠٢) والنووي (٦٧٦) وسراج الدين البلقيني [٦٨].

إنما يتواصل الأئمة والتابعون لهم وإن لم تجمعهم صلة الزمان والمكان. فصلات الفكر – كالقوى، أو الموجات، أو الأشعة، التي يزدحم بها الوجود – في انتظار من يتلقاها لتعمل أو تضئ، ولا يلقاها إلا أولوا الحظ العظيم.

---

(٦٨) في سنة ١٩٠٦ تلقى جوزيف تومسون جائزة نوبل للعلوم. قالوا: كانت الجائزة من حقه لسبب آخر: أن ثمانية من تلاميذه قد منحوها. وأين تومسون ممن تعلموا على تلاميذ من ذكرناهم، وقد تخرج على تلاميذهم أئمة!

obeikandl.com